

اتركهم يخوضوا في الباطل، ويلعبوا بما لا فائدة فيه، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

﴿٩٢﴾ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة

يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴿٩٣﴾ أي: ﴿وهذا﴾ القرآن الذي ﴿أنزلناه﴾ إليك ﴿مبارك﴾ أي: وصفه البركة،

وذلك لكثرة خيراته وسعة مبراته. ﴿مصدق الذي بين يديه﴾ أي: موافق للكتب السابقة، وشاهد لها بالصدق.

﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ أي: وأنزلناه أيضاً لتنذر أم القرى، وهي: مكة المكرمة، ومن حولها من

ديار العرب، بل ومن سائر البلدان. فتحذر الناس عقوبة الله، وأخذة الأمم، وتحذرهم مما يوجب ذلك.

﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾ لأن الخوف إذا كان في القلب عمرت أركانه، وانقاد لمراضي الله.

﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ أي: يداومون عليها، ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وآدابها،

ومكملاتها. جعلنا الله منهم ﴿٩٣﴾ - ﴿٩٤﴾ ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل

إليها، والأخلاق الرذيلة، والطرق المفضية إليها، فإذا كان ذكرى للعالمين، كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، فعليهم قبولها والشكر عليها.

﴿٩١﴾ ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به

موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها وتحفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم

ذرهم في حوضهم يلعبون﴾ هذا تشبيح على من نفى الرسالة، [من اليهود والمشركون] ^(١) وزعم أن الله ما أنزل

على بشر من شيء، فمن قال هذا، فما قدر الله حق قدره، ولا عظمه حق عظمته، إذ هذا قذح في حكمته،

وزعم أنه يترك عباده هملاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفي لأعظم منة امتن الله بها على عباده، وهي الرسالة التي لا

طريق للعباد إلى نيل السعادة، والكرامة، والفلاح، إلا بها، فأبي: قذح في الله أعظم من هذا؟!!

﴿قل﴾ لهم - ملزماً بفساد قولهم وقرهم، بما به يقرون -: ﴿من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ وهو

التوراة العظيمة ﴿نوراً﴾ في ظلمات الجهل ﴿وهدي﴾ من الضلالة، وهدياً إلى الصراط المستقيم علماً وعملاً، وهو

الكتاب الذي شاع وذاع، وملا ذكره القلوب والأسماع. حتى إنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس، ويتصرفون

فيه بما شاؤوا، فما وافق أهواءهم منه أبدوه وأظهره، وما خالف ذلك أخفوه وكنموه، وذلك كثير.

﴿وعلمتم﴾ من العلوم التي بسبب ذلك الكتاب الجليل ﴿ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ فإذا سألتهم عن من أنزل

هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات، فأجب عن هذا السؤال. و ﴿قل الله﴾ الذي أنزله، فحيث يتضح الحق

وينجلي مثل الشمس، وتقوم عليهم الحجة، ثم إذا ألزمتهم بهذا الإلزام ﴿ذرهم في حوضهم يلعبون﴾ أي:

في كتابه، أفضل من لم يقص علينا نبأهم بلا شك.

﴿ومن آباؤهم﴾ أي: آباء هؤلاء المذكورين ﴿وذرياتهم وإخوانهم﴾ أي: وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم. ﴿واجتنبناهم﴾ أي:

اخترناهم ﴿وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾

﴿ذلك﴾ الهدى المذكور ﴿هدى الله﴾ الذي لا هدى إلا هده. ﴿يهدي به من يشاء من عباده﴾ فاطلبوا

منه الهدى فإنه إن لم يهدكم فلا هادي لكم غيره، وعن شاء هدايته هؤلاء المذكورون. ﴿ولو أشركوا﴾ على

الفرض والتقدير ﴿لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ فإن الشرك محبط للعمل،

موجب للخلود في النار. فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار، لو أشركوا - وحاشاهم - لحبطت أعمالهم، فغيرهم أولى.

﴿أو أولئك﴾ المذكورون ﴿الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ أي: امش - أيها الرسول الكريم - خلف هؤلاء

الأنبياء الأخيار، واتبع ملتهم وقد امثل ﷺ، فاهتدي بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم. فاجتمعت

لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين وإمام

المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وبهذا الملحظ استدل بهذه من استدل من الصحابة، أن رسول الله ﷺ أفضل الرسل كلهم.

﴿قل﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك: ﴿لا أسألكم عليه أجراً﴾ أي: لا أطلب منكم مغزماً ومالاً جزء

عن إبلاغي إياكم، ودعوتي لكم فيكون من أسباب امتناعكم، إن أجري إلا على الله.

﴿إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ يتذكرون به ما يتفهم فيفعلونه، وما يضرهم فيذرونه ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وأوصافه. ويتذكرون به الأخلاق الحميدة، والطرق الموصلة

(١) زيادة من هامش: ب.

أنه يقدر على ما يقدر الله عليه، ويجاري الله في أحكامه، ويشرع من الشرائع كما شرعه الله، ويدخل في هذا كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثلها.

وأى: ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات، الناقص من كل وجه، مشاركة القوي الغني الذي له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته!!؟

ولما ذم الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة، فقال: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ أي: شدائده وأهواله الفظيعة، وكربه الشنيعة - لرأيت أمراً هائلاً، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها.

﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم﴾ أي: أعطيناكم وأنعمنا به عليكم ﴿وراء ظهوركم﴾ لا يغنون عنكم شيئاً ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾

فإن المشركين يشركون بالله، ويعبدون معه الملائكة والأنبياء والصالحين، وغيرهم، وهم كلهم لله، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيباً من أنفسهم، وشركة في عبادتهم، وهذا زعم منهم وظلم، فإن الجميع عبيد لله، والله مالكهم، والمستحق لعبادتهم. فشرکہم في العبادة، وصرفها لبعض العبيد، تنزيل لهم منزلة الخالق المالك، فيوبخون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة.

﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، لقد تقطع بينكم﴾ أي: تقطعت الوصل والأسباب بينكم وبين شركائكم، من الشفاعة وغيرها، فلم تنفع ولم تجد شيئاً. ﴿وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ من الريح والأمن، والسعادة والنجاة، التي زينها لكم الشيطان وحسنها في قلوبكم، فنظقت بها ألسنتكم. واغتررت بهذا الزعم الباطل الذي لا حقيقة له، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهليكم وأموالكم.

﴿٩٥-٩٨﴾ ﴿إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأتى

أنه يقدر على ما يقدر الله عليه، ويجاري الله في أحكامه، ويشرع من الشرائع كما شرعه الله، ويدخل في هذا كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثلها.

وأى: ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات، الناقص من كل وجه، مشاركة القوي الغني الذي له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته!!؟

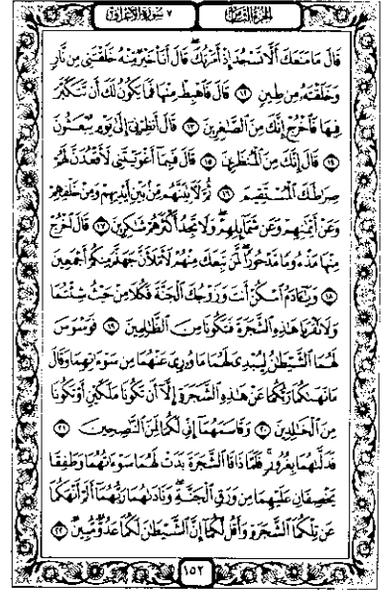
ولما ذم الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة، فقال: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ أي: شدائده وأهواله الفظيعة، وكربه الشنيعة - لرأيت أمراً هائلاً، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها.

﴿والملائكة باسطو أيديهم﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلوبهم، وتعصبتها للخروج من الأبدان: ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون﴾ أي: العذاب الشديد الذي بينكم وبذلکم، والجزاء من جنس العمل، فإن هذا العذاب ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ من كذبكم عليه، ورددكم للحق، الذي جاءت به الرسل. ﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ أي: تترفعون عن الانقياد لها، والاستسلام لأحكامها. وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب والعذاب الموجه إليهم، إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده.

وفيه دليل على أن الروح جسم يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد ويفارقه، فهذه حالهم في البرزخ.

وأما يوم القيامة فإنهم إذا وردوها، ووردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال ولا أولاد ولا جنسود ولا أنصار، كما خلقهم الله أول مرة، عارين من كل شيء.

فإن الأشياء، إنما تتمول وتحصل بعد ذلك بأسبابها التي هي أسبابها،



ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون * ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون * يقول تعالى لا أحد أعظم ظلماً ولا أكبر جرمًا ممن كذب [على] الله، بأن نسب إلى الله قولاً أو حكماً وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هذا أظلم الخلق، لأن فيه من الكذب وتغيير الأديان أصولها وفروعها، ونسبة ذلك إلى الله - ما هو من أكبر المفاسد.

ويدخل في ذلك ادعاء النبوة، وأن الله يوحى إليه وهو كاذب في ذلك، فإنه - مع كذبه على الله، وجراته على عظمته وسلطانه - يوجب على الخلق أن يتبعوه، ويجاهدهم على ذلك، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم.

ويدخل في هذه الآية كل من ادعى النبوة، كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي والمختار، وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف.

﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ أي: ومن أظلم ممن زعم،

﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ حين تشبه عليكم المسالك، ويتحير في سيره السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم وتجاراتهم وأسفارهم.

منها: نجوم لا تزال تُرى، ولا تسير عن محلها، ومنها ما هو مستمر السير، يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات.

ودلت هذه الآية ونحوها على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

﴿قد فصلنا الآيات﴾ أي: بينها، ووضحناها، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر، بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة. ﴿لقوم يعلمون﴾ أي: لأهل العلم والمعرفة، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب، بخلاف أهل الجهل والجهلاء، المعرضين عن آيات الله وعن العلم الذي جاءت به الرسل، فإن البيان لا يفيدهم شيئاً، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبساً، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلاً.

﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ وهو آدم عليه السلام. أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي؛ الذي قد ملأ الأرض. ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوتت في أخلاقه وخلقه وأوصافه تفاوتاً لا يمكن ضبطه، ولا يدرك وصفه، وجعل الله لهم مستقراً، أي: منتهى ينتهون إليه، وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكنائها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها وتعمر بها، وأودعهم الله في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ، كل ذلك على وجه الودية، التي لا تستقر

ولما ذكر تعالى، مادة خلق الأقوات، ذكر منته بتهيئة المساكن، وخلق كل ما يحتاج إليه العباد، من الضياء والظلمة، وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح فقال: ﴿فالق الإصباح﴾ أي: كما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئاً فشيئاً، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم ومعاشيهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم بوجود النهار والنور ﴿جعل﴾ الله ﴿الليل سكناً﴾ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك، بالضياء، وهكذا أبدأ إلى يوم القيامة ﴿و﴾ جعل تعالى ﴿الشمس والقمر حساباً﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فنضبط بذلك أوقات العبادات، وأجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر وتناوبهما واختلافهما - لما عرف ذلك عامة الناس، واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت.

﴿ذلك﴾ التقدير المذكور ﴿تقدير العزيز العليم﴾ الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجزت مذلة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والباطن، والأوائل والأواخر.

ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه، تسخير هذه المخلوقات العظيمة، على تقدير ونظام بديع، تحير العقول في حسنه وكماله وموافقته للمصالح والحكم.

تؤفكون * فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حساباً ذلك تقدير العزيز العليم * وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون * وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون * يخبر تعالى عن كماله، وعظمة سلطانه، وقوة اقتداره، وسعة رحمته، وعموم كرمه، وشدة عنايته بخلقه، فقال: ﴿إن الله فالق الحب﴾ شامل لسائر الحبوب التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباشرونها، كالحبوب التي يبثها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنوابت، على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها، ويفلق النوى عن الأشجار من النخيل والفواكه، وغير ذلك. فينتفع الخلق من الآدميين والأنعام والدواب. ويرتعون فيما فلق الله من الحب والنوى، ويقتاتون وينتفعون بجميع أنواع المنافع التي جعلها الله في ذلك. ويريم الله من يره وإحسانه ما يبهر العقول، ويذهل الفحول، ويريم من بدائع صنعته وكمال حكمته، ما به يعرفونه ويوحده، ويعلمون أنه هو الحق، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿يخرج الحي من الميت﴾ كما يخرج من المني حيواناً، ومن البيضة فرخاً، ومن الحب والنوى زرعاً وشجراً.

﴿ويخرج الميت﴾ وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح ﴿من الحي﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع، النوى والحب، ويخرج من الطائر بيضاً، ونحو ذلك.

﴿ذلكم﴾ الذي فعل ما فعل، وأنفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها ﴿الله﴾ ربكم أي: الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربي جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه. ﴿فأني تؤفكون﴾ أي: فأني تصرفون، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً!!

خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير * قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ * يخبر تعالى: أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم بآياته البينات، وحججه الواضحات - أن المشركين به من قريش وغيرهم، جعلوا له شركاء يدعونهم ويعبدونهم من الجن والملائكة، الذين هم خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك «خرق المشركون» أي: اتفكروا وافتروا من تلقاء أنفسهم لله، بنين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافتري عليه أشنع النقص، الذي يجب تنزيه الله عنه!!

ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون، فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص وأفة وعيب.

﴿بديع السماوات والأرض﴾ أي: خالقهما، ومتقن صنعتهما، على غير مثال سبق، بأحسن خلق ونظام وبهاء، لا تتفكر عقول أولي الأبواب مثله، وليس له في خلقهما مشارك.

﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ أي: كيف يكون لله الولد، وهو الإله السيد الصمد، الذي لا صاحبة له، أي: لا زوجة، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه، مضطرة في جميع أحوالها إليه، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله خالق كل شيء وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بوجه من الوجوه.

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء، ذكر إحاطة علمه بها، فقال: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ وفي ذكر العلم بعد الخلق، إشارة إلى الدليل العقلي إلى

التناول، متدلية على من أرادها، بحيث لا يعسر التناول من النخل وإن طال، فإنه يوجد فيها كُربٌ ومرافي يسهل صعودها.

﴿و﴾ أخرج تعالى بالماء ﴿جنات من أعناب والزيتون والرمان﴾ فهذه من الأشجار الكثيرة النفع، العظيمة الوقع، فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عمّ جميع الأشجار والنوابت.

وقوله: ﴿مشتبهاً وغير متشابه﴾ يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي: مشتبهاً في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه، يشبه بعضه بعضاً، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل يتنفع به العباد، ويتفكحون، ويقناتون ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال: ﴿انظروا﴾ نظر فكري واعتباري ﴿إلى ثمره﴾ أي: الأشجار كلها، خصوصاً: النخل إذا أثمر.

﴿وينعمه﴾ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه، فإن في ذلك عبراً وآيات يستدل بها على رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده.

ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل من تفكر أدرك المعنى المقصود، ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين، فقال: ﴿إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولو أزمه، التي منها التفكير في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه عقلاً وفطرة وشرعاً.

﴿١٠٠ - ١٠٤﴾ ﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو

ولا تثبت، بل ينتقل منها حتى يوصل إلى الدار، التي هي المستقر، وأما هذه الدار فإنها مستودع وعمر * قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون * عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبيانه.

﴿٩٩﴾ ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حياً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ وهذا من أعظم منته العظيمة، التي يضطر إليها الخلق من الآدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعاً وقت حاجة الناس إليه، فأنبت الله به كل شيء مما يأكل الناس والأنعام، فترتع الخلق بفضل الله، وانبسطوا برزقه، وفرحوا بإحسانه، وزال عنهم الجذب واليأس والقحط، وفرحت القلوب، وأسفرت الوجوه، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم، ما به يتمتعون وبه يرتعون، ما يوجب لهم أن يبذلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم، وعبادته والإنابة إليه، والمحبة له.

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات، ذكر الزرع والنخل، لكثرة نفعهما وكونهما قوتاً لأكثر الناس فقال: ﴿فأخرجنا منه خضراً نخرج منه﴾ أي: من ذلك النبات الخضرا، ﴿حياً متراكباً﴾ بعضه فوق بعض، من بر وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك من أصناف الزروع، وفي وصفه بأنه متراكب، إشارة إلى أن حيويه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، مجتمعة الأصول، وإشارة أيضاً إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار.

﴿ومن النخل﴾ أخرج الله ﴿من طلعها﴾ وهو الكفري، والوعاء قبل ظهور الفتو منه، فيخرج من ذلك الوعاء ﴿قنوان دانية﴾ أي: قريبة سهلة



لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق كان مناسباً لأحوالهم.

وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم ومشيئتهم وحدهم، وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط، فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة، من تنزيل الملائكة إليهم يشهدون للرسول بالرسالة، وتكليم الموتى، وبعثهم بعد موتهم، وحشر كل شيء إليهم حتى يكلمهم^(١) قبلاً، ومشاهدة ومباشرة، بصدق ما جاء به الرسول ما حصل منهم الإيمان، إذا لم يشأ الله إيمانهم ولكن أكثرهم يجهلون. فلذلك رتبوا إيمانهم، على مجرد إتيان الآيات، وإنما العقل والعلم أن يكون العبد مقصوده اتباع الحق، ويطلبه بالطرق التي بينها الله، ويعمل بذلك، ويستعين ربه في اتباعه، ولا يتكل على نفسه وحوله وقوته، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدة فيه.

﴿١١٢ - ١١٣﴾ وكذلك جعلنا

لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون * ولتصغي إليه أئمة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون ﴿١١٢﴾ يقول تعالى - مسلياً لرسوله محمد ﷺ - وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك، ويجاريونك ويحسدونك، فهذه سنتنا، أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء، من شياطين الإنس والجن، يقومون بضد ما جاءت به الرسل.

﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات الموهمة، فيعتقدون الحق

ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴿١١٣﴾ أي: وأقسم المشركون المكذبون للرسول محمد ﷺ: ﴿بإله جهد إيمانهم﴾ أي: قسماً اجتهدوا فيه وأكدهم. ﴿لئن جاءتهم آية﴾ تدل على صدق محمد ﷺ

﴿ليؤمنن بها﴾ وهذا الكلام الذي صدر منهم لم يكن قصدهم فيه الرشاد، وإنما قصدهم، دفع الاعتراض عليهم، ورد ما جاء به الرسول قطعاً، فإن الله أيد رسوله ﷺ بالآيات البينات، والأدلة الواضحات، التي - عند الالتفات لها - لا تبقى أدنى شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به، فطلبهم - بعد ذلك - للآيات من باب التعنت، الذي لا يلزم إجابته، بل قد يكون المنع من إجابتهم أصح لهم، فإن الله جرت سنته في عبادته، أن المقترحين للآيات على رسلهم، إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها - أنه يعاجلهم بالعقوبة، ولهذا قال: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي: هو الذي يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء، فطلبكم مني الآيات ظلم، وطلب لما لا أملك، وإنما توجهون إلي توضيح ما جئتكم به وتصديقه، وقد حصل، ومع ذلك فليس معلوماً، أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون، بل الغالب ممن هذه حاله أنه لا يؤمن، ولهذا قال:

﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾

﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي: ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيه الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلك الصراط المستقيم.

وهذا من عدل الله وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح

مع الله، التي يتقرب إلى الله باهانتها وسبها.

ولكن لما كان هذا السب طريقاً إلى سب المشركين لرب العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب، وأفة، وسب، وقدح - نهى الله عن سب آلهة المشركين، لأنهم يحمون لدينتهم، ويتعصبون له. لأن كل أمة زين الله لهم عملهم، فأروه حسناً وذبوا عنه، ودافعوا بكل طريق، حتى إنهم ليسبون الله رب العالمين، الذي رسخت عظمته في قلوب الأبرار والفيجار، إذا سب المسلمون آلهتهم. ولكن الخلق كلهم مرجعهم ومآلهم إلى الله يوم القيامة، يعرضون عليه، وتعرض أعمالهم، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر.

وفي هذه الآية الكريمة دليل للمقاعدة الشرعية وهي أن الوسائل تعتبر بالأمر التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تفضي إلى الشر.

﴿١٠٩ - ١١١﴾ ﴿وأقسموا بالله جهد إيمانهم لنن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون *﴾

عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴿ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ محذراً عن طاعة أكثر الناس: ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم وعلومهم. فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق.

بل غايتهم أنهم يتبعون الظن الذي لا يعني من الحق شيئاً، ويتخرون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المشابة، فحري أن يحذر الله منه عباده، ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا - وإن كان خطاباً للنبي ﷺ - فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام التي ليست من خصائصه.

والله تعالى أصدق قيبلاً، وأصدق حديثاً، و ﴿ هو أعلم من يضل عن سبيله ﴾ وأعلم بمن يهتدي ويهدي. فيجب عليكم - أيها المؤمنون - أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عدداً، الأعظمون - عند الله - قدراً وأجرأ، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه.

﴿ ١١٨ - ١١٩ ﴾ ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم مؤمنين ﴾ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فضل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطرتهم إليه وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بمقتضى الإيمان، وأنهم، إن كانوا مؤمنين، فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام، وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حلها،

حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممتريين * وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾ أي: قل يا أيها الرسول ﴿ أفغير الله أبغى حكماً ﴾ أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه. فإن غير الله محكوم عليه، لا حاكم. وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مشتمل على النقص والعيب والجور، وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكماً، فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

﴿ الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ أي: موضعاً فيه الحلال والحرام، والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكماً، ولا أقوم قيبلاً، لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة.

وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى، يعترفون بذلك ﴿ ويعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ ولهذا تواطأت الإخبارات ﴿ فلا ﴾ تشكن في ذلك ولا ﴿ تكونن من الممتريين ﴾.

ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأمر والنهي. فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ [حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها ولا اقتراح أحسن منها] ^(١).

﴿ وهو السميع ﴾ لساائر الأصوات، باختلاف اللغات على فنن الحاجات. ﴿ العليم ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والباطن، والماضي والمستقبل.

﴿ ١١٦ - ١١٧ ﴾ ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ إن ربك هو أعلم من يضل

باطلاً والباطل حقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ ولتصغى إليه ﴾ أي: ولنتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿ أقشدة الديدن لا يؤمنون بالآخرة ﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحملهم على ذلك، ﴿ وليرضوه ﴾ بعد أن يصغوا إليه فيصغون إليه أولاً، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين، بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التموهيات، بل همتههم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعوة، فإن كانت حقاً قبلوها وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظاً غير وافية، وإن كانت باطلاً، ردوها على من قالها، كائناتاً من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة، ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبيا أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، ليتميز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته أن في ذلك بياناً للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه. فإنه - حينئذ - يتبين من أدلة الحق، وشواهد الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب التي يتناقس فيه المتنافسون.

﴿ ١١٤ - ١١٥ ﴾ ﴿ أفغير الله أبغى

فإن المشركين - حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة - قالوا - معاندة لله ورسوله، ومجادلة بغير حجة وبرهان - أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك: الميتة.

وهذا رأي: فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعاً لها لفسدت السموات والأرض، ومَنْ فيهن.

فتباً لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشباهها صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وإن أطعمتموهم﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إنكم لمشركون﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف، التي يكثُر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل - بمجرد ما على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله.

فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك، توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب، لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن، ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، وعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال، ما لا يحصيه إلا الله.

﴿١٢٢ - ١٢٤﴾ ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما

الأشياء المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده. فنهى الله عباده عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها، ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلم بذلك واجباً متعيناً على المكلف.

وكثير من الناس، تحفى عليه كثير من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب، كالكبر والعجب والرياء، ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

﴿١٢١﴾ ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعمتموهم إنكم لمشركون﴾ ويدخل تحت هذا المنهي عنه ما ذكر عليه اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام وألتهم، فإن هذا مما أهل لغير الله به، المحرم بالنص عليه خصوصاً.

ويدخل في ذلك متروك التسمية بما ذبح لله، كالضحايا والهدايا، أو للحم والأكل، إذا كان الذابح متعمداً ترك التسمية عند كثير من العلماء.

ويخرج من هذا العموم التناسي بالنصوص الأخرى، الدالة على رفع الحرج عنه، ويدخل في هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه.

ونص الله عليها بخصوصها في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ﴾ ولعلها سبب نزول الآية، لقوله: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ بغير علم.

ولا يفعلوا كما تفعله الجاهلية، من تحريم كثير من الحلال، ابتداءً من عند أنفسهم، وإضلالاً من شياطينهم، فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية، في هذه العادة الذميمة، المتضمنة لتغيير شرع الله، وأنه أي شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه، وقد فضل الله لعباده ما حرم عليهم، وبينه ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال، خوفاً من الوقوع في الحرام، ودلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة، الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها، فإنه باق على الإباحة، فما سكنت الله عنه فهو حلال، لأن الحرام قد فضله الله فما لم يفصله الله، فليس بحرام.

ومع ذلك فالحرام الذي قد فضله الله وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخمة، كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ إلى أن قال: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾.

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وإن كثيراً ليضلوا بأهوائهم﴾ أي: بمجرد ما تهوى أنفسهم بغير علم ولا حجة. فيحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلاقتهم - كما وصفهم الله لعباده - أن دعوتهم غير مبنية على برهان، ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبه، بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة، فهؤلاء معتدون على شرع الله وعلى عباد الله، والله لا يحب المعتدين، بخلاف الهادين المهتدين، فإنهم يدعون إلى الحق والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم والقرب منه.

﴿١٢٠﴾ ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ المراد بالإثم: جمع المعاصي التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم والحرج، من



﴿١٢٥﴾ ﴿١٢٦﴾ ﴿١٢٧﴾ ﴿١٢٨﴾ ﴿١٢٩﴾ ﴿١٣٠﴾ ﴿١٣١﴾ ﴿١٣٢﴾ ﴿١٣٣﴾ ﴿١٣٤﴾ ﴿١٣٥﴾ ﴿١٣٦﴾ ﴿١٣٧﴾ ﴿١٣٨﴾ ﴿١٣٩﴾ ﴿١٤٠﴾ ﴿١٤١﴾ ﴿١٤٢﴾ ﴿١٤٣﴾ ﴿١٤٤﴾ ﴿١٤٥﴾ ﴿١٤٦﴾ ﴿١٤٧﴾ ﴿١٤٨﴾ ﴿١٤٩﴾ ﴿١٥٠﴾

يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴿١٢٥﴾ يقول تعالى - مبيناً لعباده علامة سعادة العبد وهدايته، وعلامة شقاوته وضلاله - : إن من انشرح صدره للإسلام، أي : اتسع وانفسح، فاستنار بنور الإيمان، وحيي بضوء اليقين، فاطمأنت بذلك نفسه، وأحب الخير، وطوعت له نفسه فعلة، مثلثاً به غير مستثقل فإن هذا علامة على أن الله قد هداه، ومن عليه بالتوفيق، وسلوك أقوم الطرق .

وإن علامة من يرد الله أن يضله، أنه يجعل صدره ضيقاً حرجاً . أي : في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، لا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد في السماء، أي : كأنه يكلف الصعود إلى السماء الذي لا حيلة له فيه .

وهذا سببه عدم إيمانهم هو الذي أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم، لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان، وهذا ميزان لا يعول، وطريق لا يتغير، فإن مَنْ أعطى واتقى وصدق بالحسنى، يسره الله لليسرى، وَمَنْ بخل واستغنى وكذب بالحسنى،

كانوا يعملون * وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون * وإذا جاءهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴿١٢٦﴾ يقول تعالى : ﴿أَوْ مَنْ كَانَ﴾ من قبل هداية الله له ﴿ميتاً﴾ في ظلمات الكفر والجهل والمعاصي، ﴿فأحييناه﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصراً في أموره مهتدياً لسبيله، عارفاً للخير مؤثراً له، مجتهداً في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفاً بالشر، مبغضاً له، مجتهداً في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره . أفيتسوي هذا بمن هو في الظلمات، ظلمات الجهل والغي، والكفر والمعاصي .

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم يناضلون هؤلاء المجرمين، ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم في سبيل الله، ويسلكون بذلك السبيل الموصلة إلى ذلك، ويعينهم الله ويسدد رأيهم ويثبت أقدامهم، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم، حتى يدول الأمر في عاقبته بنصرهم وظهورهم، والعاقبة للمتقين .

وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم، وقاموا برد الحق الذي جاء به الرسل، حسداً منهم وبغياً، فقالوا : ﴿لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾ من النبوة والرسالة . وفي هذا اعتراض منهم على الله، وعجب بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله الله على أيدي رسله، وتحجر على فضل الله وإحسانه .

فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلاً أن يكونوا من النبيين والمرسلين، فقال : ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ فمن علمه يصلح لها، ويقوم بأعبائها، وهو متصف بكل خلق جميل، ومتبرؤ من كل خلق دنيء، أعطاه الله منها ما تقتضيه حكمته أصلاً وتبعاً، ومن لم يكن كذلك، لم يضع أفضل مواهبه، عند مَنْ لا يستأله، ولا يزكو عنده .

وفي هذه الآية دليل على كمال حكمة الله تعالى، لأنه وإن كان تعالى رحيماً واسع الجود كثير الإحسان، فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله، ثم توعد المجرمين، فقال : ﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله﴾ أي : إهانة وذل، كما تكبروا على الحق أذلهم الله . ﴿وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾ أي : بسبب مكرهم، لا ظلماً منه تعالى .

﴿ليس بخارج منها﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء . فنيه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوي هذا ولا هذا كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات .

فكأنه قيل : كيف يؤثر مَنْ له أدنى مسكة من عقل، أن يكون بهذه الحالة، وأن يبقى في الظلمات متحيراً : فأجاب بأنه ﴿زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾ فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم، ويزينها في قلوبهم، حتى استحسوها ورأوها حقاً . وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم، فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبحان . وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون، وفي باطلهم يترددون غير متساوين .

فمنهم : القادة، والرؤساء، والمتبعون، ومنهم : التابعون المرؤسون، والأولون منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال، ولهذا قال :

﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها﴾ أي : الرؤساء الذين قد كبر جرمهم، واشتد طغيانهم ﴿ليمكروا

لهم اعتذاراً، وأما أولياؤهم من الإنس فأبدوا عذراً غير مقبول، فقالوا: ﴿ربنا استمع بعضنا ببعض﴾ أي: تمتع كل من الجنّي والإنسي بصاحبه، وانتفع به.

فالجنيّ يستمتع بطاعة الإنسي له، وعبادته وتعظيمه، واستعادته به. والإنسي يستمتع بنيل أغراضه، وبلوغه بسبب خدمة الجنّي له بعض شهراته، فإن الإنسي يعبد الجنّي، فيخدمه الجنّي، ويحصل له منه بعض الخواصّ الدنيوية، أي: حصل منا من الذنوب ما حصل، ولا يمكن رد ذلك، ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ أي: وقد وصلنا المحل الذي تجاوز فيه بالأعمال، فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، فقد انقطعت حاجتنا ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكملك. وكان في هذا الكلام منهم نوع تضرع وترقق، ولكن في غير أوانه. ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل، الذي لا جور فيه، فقال: ﴿النار مثواكم خالدين فيها﴾.

ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه، ختم الآية بقوله: ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمتها، فحكمته الغائية شملت الأشياء وعمتها وسعتها.

﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ أي: وكما ولينا الجن المردة وسلطانهم على إضلال أوليائهم من الإنس وعقدنا بينهم عقد الموالاتة الموافقة، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك.

كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالماً مثله، يؤزّه إلى الشر ويحثه عليه، ويزهده في الخير وينفره عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها، البالغ خطرها.

والذنب ذنب الظالم، فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى نفسه جنى ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾. ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم، وفسادهم، ومنعهم الحقوق الواجبة، ولّى عليهم ظلمة يسومونهم سوء

مولاه واتبع هواه، فإنه سلط عليه الشيطان فتولاه، فأفسد عليه دينه وديناه.

﴿١٢٨ - ١٣٥﴾ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون * يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين * ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون * لكل درجات بما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون * وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين * إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين * قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾ يقول تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس، وزينوا لهم الشر، وأزوههم إلى المعاصي: ﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ أي: من إضلالهم وصددهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجراتم على معاندة رسلي؟ وقمتم محاربين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟

فاليوم حقت عليكم لعنتي، ووجبت لكم نعمتي، وسنزيدكم من العذاب بحسب كفركم، وإضلالكم لغيركم. وليس لكم عذر به تعتذرون، ولا ملجأ إليه لتلجأون، ولا شافع يشفع ولا دعاء يسمع، فلا تسأل حيثئذ، عما يجل بهم من النكال والحزى والوبال، ولهذا لم يذكر الله



فيسيره للعري.

﴿١٢٦ - ١٢٧﴾ ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون﴾ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون * أي: معتدلاً، موصلاً إلى الله وإلى دار كرامته، قد بينت أحكامه، وفضلت شرائعه، وميز الخير من الشر. ولكن هذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لقوم يذكرون﴾ فإنهم الذين علموا، فانتفعوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزء الجزيل، والأجر الجميل، فلماذا قال: ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾ وسميت الجنة دار السلام، لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر، وهم وغم، وغير ذلك من المنغصات، ويلزم من ذلك أن يكون نعيمها في غاية الكمال، ونهاية التمام، بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون، ولا يتمنى فوّه المتمنون، من نعيم الروح والقلب والبدن، ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلد الأعين، وهم فيها خالدون.

﴿وهو وليهم﴾ الذي تولى تدبيرهم وتربيتهم، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانهم على طاعته، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته، وإنما تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم، بخلاف من أعرض عن



الوصول إلى هذه الدار، ف ﴿إن ما تودعون لأت وما أنتم بمعجزين﴾ الله، فارين من عقابه، فإن نواصيكم تحت قبضته، وأنتم تحت تديبه وتصرفه.

﴿قل﴾ يا أيها الرسول لفرمك إذا دعوتهم إلى الله، وبيئت لهم ما لهم وما عليهم من حقوقه، فامتنعوا من الاقياد لأمره واتبعوا أهواءهم، واستمروا على شركهم: ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي: على حالتكم التي أنتم عليها، ورضيتموها لأنفسكم ﴿إني عامل﴾ على أمر الله، ومتبوع لمراضي الله. ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ أنا أو أنتم، وهذا من الإنصاف بموضع عظيم حيث بين الأعمال وعاملها، وجعل الجزاء مقروناً بنظر البصير، ضارباً فيه صفحاً عن التصريح الذي يغني عنه التلويح. وقد علم أن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للمتقين، وأن المؤمنين لهم عقبى الدار، وأن كل معرض عن ما جاءت به الرسل عاقبته عاقبة سوء وشر، ولهذا قال: ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ فكل ظالم، وإن تمتع في الدنيا بما تمتع به، فنهايته [فيه] الاضمحلال والتلف «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته».

﴿١٣٦ - ١٤٠﴾ ﴿وجعلوا لله ثماً ذراً من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان

الريح والفلاح ودخول الجنة، فإن بينهم من الفرق ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم قد رضوا بما آتاهم مولاهم، وفتنوا بما حباهم.

فنسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى، التي أعدها الله للمقربين من عباده، والمصطفين من خلقه، وأهل الصفوة من أهل وداده.

﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ فيجازي كلًا بحسب عمله، وبما يعلمه من مقصده، وإنما أمر الله العباد بالأعمال الصالحة، ونهاهم عن الأعمال السيئة، رحمة بهم وقصدًا لمصالحهم، وإلا فهو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، فلا تنفعه طاعة الطائعين، كما لا تضره معصية العاصين.

﴿إن يشأ يذهبكم﴾ بالهلاك ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشاكم من ذرية قوم آخرين﴾ فإذا عرفتم بأنكم لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار كما انتقل غيركم، وترحلون منها وتخلونها لمن بعدكم، كما رحل عنها من قبلكم وخلوها لكم، فلم اتخذتموها قراراً؟ وتوطئتم بها ونسيتم، أنها دار عمر لا دار مقر. وأن أمامكم داراً، هي الدار التي جمعت كل نعيم وسلمت من كل آفة ونقص؟

وهي الدار التي يسمى إليها الأولون والآخرون، ويرحل نحوها السابقون واللاحقون، التي إذا وصلوها، فثم الخلود الدائم، والإقامة اللازمة، والغاية التي لا غاية وراءها، والمطلوب الذي ينتهي إليه كل مطلوب، والمرغوب الذي يضمحل دونه كل مرغوب، هنالك والله، ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، ويتنافس فيه المتنافسون، من لذة الأرواح وكثرة الأفراح، ونعيم الأبدان والقلوب، والقرب من علام الغيوب، فلله همه تعلقت بتلك الكرامات، وإرادة سمت إلى أعلى الدرجات!! وما أبخس حظ من رضي بالدون، وأدنى همه من اختار صفقة المغبون!! ولا يستبعد المعرض الغافل، سرعة

العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله، وحقوق عباده، على وجه غير ماجورين فيه ولا محتسين.

كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا، أصلح الله رعاهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف، ثم ويخ الله جميع من أعرض عن الحق وردده، من الجن والإنس، وبيّن خطأهم فاعترفوا بذلك، فقال:

﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾ الواضحات البينات، التي فيها تفاصيل الأمر والنهي والخير والشر، والوعد والوعيد.

﴿ويذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ ويعلمونكم أن النجاة فيه، والفوز إنما هو بامثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وأن الشقاء والخسران في تضييع ذلك، فأقروا بذلك واعترفوا، ف ﴿قالوا﴾ بلى ﴿شهدنا على أنفسنا وغرتم الحياة الدنيا﴾ بزينتها وزخرفها، ونعيمها، فاطمأنوا بها ورضوا، وألتهتهم عن الآخرة، ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ فقامت عليهم حجة الله، وعلم حينئذ كل أحد، حتى هم بأنفسهم عدل الله فيهم، فقال لهم: حاكما عليهم بالعذاب الأليم: ﴿ادخلوا في﴾ جملة ﴿أمم قد خلقت من قبلكم من الجن والإنس﴾ صنعوا كصنيعكم، واستمتعوا بخلاقهم كما استمتعتم، وخاضوا بالباطل كما خضتم، إنهم كانوا خاسرين، أي: الأولون من هؤلاء والآخرون، وأي: خسران أعظم من خسران جنات النعيم، وحرمان جوار أكرم الأكرمين؟! ولكنهم وإن اشتروا في الخسران، فإنهم يتفاوتون في مقدارته تفاوتاً عظيماً.

﴿ولكل﴾ منهم ﴿درجات مما عملوا﴾ بحسب أعمالهم، لا يجعل قليل الشر منهم ككثيره، ولا التابع كالمتبوع، ولا المرؤوس كالرئيس، كما أن أهل الثواب والجنة وإن اشتروا في

أولادهم، وهو: الواد، الذين يذفنون أولادهم الذكور خشية الافتقار، والإناث خشية العار.

وكل هذا من خدع الشياطين، الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك، ويلبسوا عليهم دينهم، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح، ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة، ولو شاء الله أن يمنعهم ويجول بينهم وبين هذه الأفعال، وينع أولادهم عن قتل الأبوين لهم، ما فعلوه، ولكن اقتضت حكمته التخلية بينهم وبين أفعالهم، استدراجاً منه لهم، وإمهالاً لهم، وعدم مبالاة بما هم عليه، ولهذا قال: ﴿فذرهم وما يفترون﴾ أي: دعهم مع كذبهم وافتراءهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضروا الله شيئاً.

ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عموماً، وجعلها رزقاً ورحمة، يتمتعون بها وينتفعون، قد اخترعوا فيها بدعاً وأقوالاً من تلقاء أنفسهم، فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام [والحرف] أنهم يقولون فيها: ﴿هذه أنعام وحرث حجر﴾ أي: محرم ﴿لا يطعمها إلا من نشاء﴾ أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف - من عندهم -.

وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة، إلا أهويتهم وآراءهم الفاسدة.

وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها أي: بالركوب والحمل عليها، ويحرمون ظهرها، ويسمونها الحام، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كذبة فجار في ذلك.

﴿سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾ على الله من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل والمنافع. ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون

محظورين، بل ثلاثة محاذير، منتهم على الله في جعلهم له نصيباً، مع اعتقادهم أن ذلك منهم تبرع، وإشراك الشركاء الذين لم يرزقوهم، ولم يوجدوا لهم شيئاً في ذلك، وحكمهم الجائر في أن ما كان لله لم يبالوا به ولم يهتموا، ولو كان واصلاً إلى الشركاء، وما كان لشركائهم اعتنوا به واحتفظوا به ولم يصل إلى الله منه شيء، وذلك أنهم إذا حصل لهم - من زروعهم وثمارهم وأنعامهم التي أوجدها الله لهم - شيء، جعلوه قسامين:

قسماً قالوا: هذا لله بقولهم وزعمهم، والا فإله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه، ولا يقبل عمل من أشرك به.

وقسماً جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد.

فإن وصل شيء مما جعلوه لله، واختلط بما جعلوه لغيره، لم يبالوا بذلك، وقالوا: الله غني عنه، فلا يردونه، وإن وصل شيء مما جعلوه لأنهم إلى ما جعلوه لله، ردوه إلى محله، وقالوا: إنها فقراء، لا بد من رد نصيبها.

فهل أسوأ من هذا الحكم. وأظلم؟! حيث جعلوا ما للمخلوق، يجتهد فيه ويصحح ويحفظ، أكثر مما يفعل بحق الله.

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة، ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال عن الله تعالى أنه قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من أشرك معي شيئاً تركته وشركه».

وأن معنى الآية أن ما جعلوه وتقربوا به لأوثانهم، فهو تقرب خالص لغير الله، ليس لله منه شيء، وما جعلوه لله - على زعمهم - فإنه لا يصل إليه لكونه شركاً، بل يكون حظ الشركاء والأنداد، لأن الله غني عنه، لا يقبل العمل الذي أشرك به معه أحد من الخلق.

ومن سفه المشركين وضلالهم أنه زين لكثير من المشركين شركاؤهم - أي: رؤساؤهم وشياطينهم - قتل



لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون * وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون * وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميثم فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم * قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين * يخبر تعالى عما عليه المشركون المكذبون للنبي ﷺ، من سفاهة العقل وخفة الأحلام، والجهل البليغ، وعدد تبارك وتعالى شيئاً من خرافاتهم لينبه بذلك على ضلالهم والحذر منهم، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق الذي جاء به الرسول، لا تقدر فيه أصلاً، فإنهم لا أهلية لهم في مقابلة الحق، فذكر من ذلك أنهم ﴿جعلوا لله محاذراً من الحرث والأنعام نصيباً﴾ ولشركائهم من ذلك نصيباً، والحال أن الله تعالى هو الذي ذرأه للعباد، وأوجده رزقاً، فجمعوا بين محذورين

بعض الأنعام ويعينوها - محرماً ما في بطونها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا﴾ أي: حلال لهم، لا يشاركهم فيها النساء، ﴿ومحرم على أزواجنا﴾ أي: نسائنا، هذا إذا ولد حياً، وإن يكن ما [في] بطونها يولد ميتاً، فهم فيه شركاء، أي: فهو حلال للذكور والإناث.

﴿سيجزيهم﴾ الله ﴿وصفهم﴾ حيث وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلى الله. ﴿إنه حكيم﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال. ﴿عليم﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يعاقبهم ويرزقهم جل جلاله.

﴿١٤٠﴾ ثم بين خسارتهم وسفاهة عقولهم فقال: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم﴾ أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم - بعد العقول الرزينة - السفه المردي والضلال.

﴿وحرموا ما رزقهم الله﴾ أي: ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقاً لهم. فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أحل الحلال.

وكل هذا ﴿افتراء على الله﴾ أي: كذباً يكذب به كل معاند كفار. ﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ أي: قد ضلوا ضلالاً بعيداً، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

﴿١٤١﴾ ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان مثلباً وغير مثلباً﴾ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴿لما ذكر تعالى تصرف المشركين في كثير مما أحله الله لهم من الحروث والأنعام، ذكر تبارك وتعالى نعمته عليهم بذلك، ووظفتهم اللازمة عليهم في الحروث والأنعام

فقال: ﴿وهو الذي أنشأ جنات﴾ أي: بساتين، فيها أنواع الأشجار المتنوعة، والنباتات المختلفة.

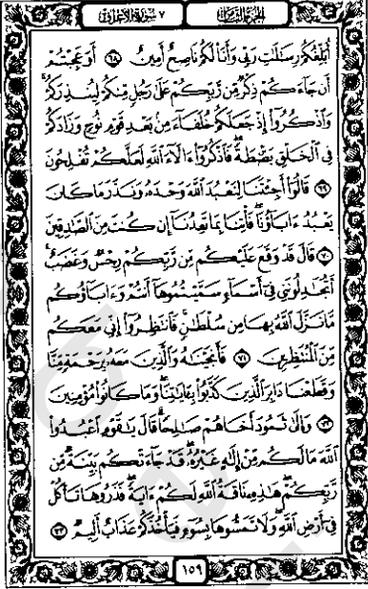
﴿معروشات وغير معروشات﴾ أي: بعض تلك الجنات، مجعول له عرش، تنتشر عليه الأشجار، ويعاونا في النهوض عن الأرض. وبعضها خال من العروش، تثبت على ساق، أو تنفرض في الأرض، وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها وخيراتها، وأنه تعالى علم العباد كيف يعرشونها وينموها.

﴿وأنشأ تعالى﴾ النخل والزرع مختلفاً أكله﴾ أي: كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل.

وخص تعالى النخل والزرع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها، ولكونها هي القوت لأكثر الخلق. ﴿وأنشأ تعالى﴾ الزيتون والرمان مثلباً في شجره ﴿وغير مثلباً﴾ في ثمره وطعمه. كأنه قيل: لأي: شيء أنشأ الله هذه الجنات، وما عطف عليها؟ فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد فقال: ﴿كلوا من ثمره﴾ أي: النخل والزرع ﴿إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾ أي: أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصبة المقدرة في الشرع، أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حولان الحول، لأنه الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حينئذ إخراجه على أهل الزرع، ويكون الأمر فيها ظاهراً لمن أخرجها، حتى يتمييز المخرج ممن لا يخرج.

وقوله: ﴿ولا تسرفوا﴾ بعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلاً يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أو غرماءه، فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه، الذي لا يحبه الله بل يبغضه ويمقت عليه.

وفي هذه الآية دليل على وجوب



الزكاة في الشمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصادها في الزرع، وجزاء النخل، وأنه لا تتكرر فيها الزكاة، لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة، إذا كانت لغير التجارة، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده.

وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والشمر، أنه لا يضمئنها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكى المال الذي يبقى بعده.

وقد كان النبي ﷺ يبعث خالصاً يحرص للناس ثمارهم، ويأمره أن يدع لأهلها الثلث، أو الربع، بحسب ما يعترها من الأكل وغيره من أهلها وغيرهم.

﴿١٤٢ - ١٤٤﴾ ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشاً﴾ كلوا مما رزقكم الله ولا تنبعا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكربين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبؤوني بعلم إن كنتم صادقين * ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكربين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افتري على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم

غير الظلم والجور والافتراء على الله .

﴿١٤٥-١٤٦﴾ **﴿قل لا أجد في**

ما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم * وعلى الذين هادوا

حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورها أو الخوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم بغيرهم وإنما لصادقون

لما ذكر تعالى ذم المشركين على ما حرموا

من الحلال ونسبوه إلى الله، وأبطل قولهم . أمر تعالى رسوله أن يبين للناس

ما حرمه الله عليهم، ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال، من نسب تحريمه إلى الله

فهو كاذب مبطل، لأن التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان

رسوله، وقد قال لرسوله: **﴿قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على**

طاعم﴾ أي: محرماً أكله، بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه .

﴿إلا أن يكون ميتة﴾ والميتة: ما

مات بغير ذكاة شرعية، فإن ذلك لا يجزئ . كما قال تعالى: **﴿حرمت**

عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير .

﴿أو دماً مسفوحاً﴾ وهو الدم الذي

يخرج من الذبيحة عند ذكاتها، فإنه الدم الذي يضر احتباسه في البدن، فإذا

خرج من البدن زال الضرر بأكل اللحم، ومفهوم هذا اللفظ، أن الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد

الذبح، أنه حلال طاهر .

﴿أو لحم خنزير فإنه رجس﴾ أي:

فإن هذه الأشياء الثلاثة رجس، أي:

خبث نجس مضر، حرمه الله لطفاً بكم، ونزاهة لكم عن مقاربة الخيائن .

﴿أو﴾ إلا أن يكون **﴿فسقاً أهل**

لغير الله به﴾ أي: إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله، من الأوثان والآلهة

التي يعبدونها المشركون، فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله

إلى معصيته، أي: ومع هذا، فهذه الأشياء المحرمات، من اضطر إليها،

أي: حملته الحاجة والضرورة إلى أكل

ولا الإناث الخالص من الصنفين .

بقي إذا كان الرحم مشتملاً على ذكر وأنثى، أو على مجهول فقال: **﴿أم﴾**

تحرمون **﴿ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾** أي: أنثى الضأن وأنثى

المعز، من غير فرق بين ذكر وأنثى، فليست تقولون أيضاً بهذا القول .

فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة، التي حصرت الأقسام الممكنة في ذلك، فإلى أي: شيء

تذهبون؟

﴿نبؤوني بعلم إن كنتم صادقين﴾

في قولكم ودعواكم، ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائغاً في

العقل، إلا واحداً من هذه الأمور الثلاثة . وهم لا يقولون بشيء منها .

إنما يقولون: إن بعض الأنعام التي يصطلحون عليها اصطلاحات من عند

أنفسهم، حرام على الإناث دون الذكور، أو محرمة في وقت من

الأوقات، أو نحو ذلك من الأقوال، التي يعلم علماً لا شك فيه أن

مصدرها من الجهل المركب، والعقول المختلفة المنحرفة، والآراء الفاسدة،

وأن الله ما أنزل - بما قالوه - من سلطان، ولا لهم عليه حجة

ولا برهان .

ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك . فلما بين بطلان قولهم وفساده، قال

لهم قولاً لا حيلة لهم في الخروج من تبعته، إلا في اتباع شرع الله . **﴿أم**

كنتم شهداء إذ وصاكم الله﴾ أي: لم يبق عليكم إلا دعوى، لا سبيل لكم

إلى صدقها وصحتها . وهي أن تقولوا: إن الله وضأننا بذلك، وأوحى إلينا كما

أوحى إلى رسله، بل أوحى إلينا وحياً مخالفاً لما دعت إليه الرسل ونزلت به

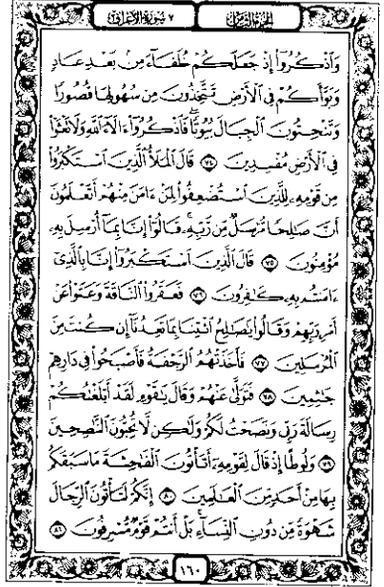
الكتب، وهذا افتراء لا يجمله أحد، ولهذا قال: **﴿فمن أظلم ممن افترى**

على الله كذباً ليضل الناس بغير علم﴾ أي: مع كذبه وافتراءه على الله، قصده

بذلك، إضلال عباد الله عن سبيل الله، بغير بيينة منه ولا برهان،

ولا عقل ولا نقل . **﴿إن الله لا يهدي**

القوم الظالمين﴾ الذين لا إرادة لهم في



الظالمين﴾ أي: **﴿و﴾** خلق وأنشأ **﴿من**

الأنعام حمولة وفرشاً﴾ أي: بعضها

تحملون عليه وتركبونه، وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها

لصغرها كالفصلان ونحوها، وهي الفرش، فهي من جهة الحمل والركوب

تنقسم إلى هذين القسمين .

وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع، فإنها كلها تؤكل ويتنعم بها .

ولهذا قال: **﴿كلوا مما رزقكم الله**

ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي:

طرقه وأعماله التي من جهلتها أن تحرموا بعض ما رزقكم الله . **﴿إنه لكم عدو**

مبين﴾ فلا يأمركم إلا بما فيه مضرتمكم وشقاؤكم الأبدى .

وهذه الأنعام التي امتن الله بها على عباده، وجعلها كلها حلالاً طيباً،

فصلها بأنها: **﴿ثمانية أزواج من الضأن**

اثنين﴾ ذكر وأنثى **﴿ومن المعز اثنين﴾**

كذلك، فهذه أربعة، كلها داخلة فيما أحل الله، لا فرق بين شيء منها،

فقل لهؤلاء المتكلفين، الذين يجرمون منها شيئاً دون شيء، أو يجرمون بعضها على الإناث دون الذكور، ملزماً

لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا **﴿الذكريين﴾** من الضأن

والمعز **﴿حرم﴾** الله، فليست تقولون بذلك وتطردونه، **﴿أم الأنثيين﴾**

حرم الله من الضأن والمعز، فليس هذا قولكم، لا تحريم الذكور الخالص،

وذنوبهم، فاحذروا الجرائم الموصلة لبأس الله، التي أعظمها ورأسها تكذيب محمد ﷺ

﴿١٤٨ - ١٤٩﴾ ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تحرصون﴾ قل فقل للْحجَّةِ البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله بالقضاء والقدر، ويعجلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر، حجة لهم في دفع اللوم عنهم.

وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾ الآية.

فأخبر تعالى أن هذه الحججة لم تزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل ويحتجون بها، فلم تجد فيهم شيئاً ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى أهلكهم الله وأذقهم بأسه.

فلو كانت حجة صحيحة، لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب، لأنه لا يحمل بأسه إلا بمن استحقه، فعلم أنها حجة فاسدة، وشبهة كاسدة من عدة أوجه:

منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة لم تحمل بهم العقوبة.

ومنها: أن الحججة لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذ كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص الذي لا يُغني عن الحق شيئاً، فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾ فلو كان لهم علم - وهم خصوم الأداء - لأخرجوه، فلما لم يخرجوه علم أنه لا علم عندهم. ﴿إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تحرصون﴾ ومن بنى حججه على الخرص والظن، فهو مبطل

به، وما سوى ذلك فحلال. ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هذا الاحتمال، أن بعض الجهال قد يدخله في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من أنواع الغنم، كما قد يتوهمه جهلة النصارى وأشباههم، فيمنونها كما ينمون المواشي، ويستحلونها، ولا يفرقون بينها وبين الأنعام، فهذا المحرم على هذه الأمة كله^(١) من باب التنزيه لهم والصيانة.

وأما ما حرم على أهل الكتاب، فبعضه طيب ولكنه حرم عليهم عقوبة لهم ولهذا، قال: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ وذلك كالإبل وما أشبهها وحرمنا عليهم.

﴿من البقر والغنم﴾ بعض أجزائها، وهو: ﴿شحومهما﴾ وليس المحرم جميع الشحوم منها، بل شحم الألية والثرب، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك، فقال: ﴿إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا﴾ أي: الشحم المخالط للأعضاء ﴿أو ما اختلط بعظم﴾.

﴿ذلك﴾ التحريم على اليهود ﴿جزيناهم ببغيهم﴾ أي: ظلمهم وتعديهم في حقوق الله وحقوق عباده، فحرم الله عليهم هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالاً. ﴿وإننا لصادقون﴾ في كل ما نقول ونفعل ونحكم به، ومن أصدق من الله حديثاً، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

﴿١٤٧﴾ ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ أي: فإن كذبك هؤلاء المشركون، فاستمر على دعوتهم، بالترغيب والترهيب، وأخبرهم بأن الله ﴿ذو رحمة واسعة﴾ أي: عامة شاملة [لجميع] للمخلوقات كلها، فسارعوا إلى رحمة بأسبابها، التي رأسها وأساسها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما جاء به.

﴿ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ أي: الذين كثر إجرامهم

شيء منها، بأن لم يكن عنده شيء وخاف على نفسه التلف ﴿غير باع ولا عاد﴾ أي: ﴿غير باع﴾ أي: مريد لأكلها، من غير اضطرار ولا متعدي، أي: متجاوز للحد، بأن يأكل زيادة عن حاجته. ﴿فمن اضطر غير باع ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ أي: فإله قد سامح من كان بهذه الحال.

واختلف العلماء رحمهم الله في هذا الحصر المذكور في هذه الآية، مع أن ثم محررات لم تذكر فيها، كالسباع وكل ذي مخلب من الطير ونحو ذلك، فقال بعضهم: إن هذه الآية نازلة قبل تحريم ما زاد على ما ذكر فيها، فلا ينافي هذا الحصر المذكور فيها التحريم المتأخر بعد ذلك؛ لأنه لم يجده فيما أوحى إليه في ذلك الوقت، وقال بعضهم: إن هذه الآية مشتملة على سائر المحرمات، بعضها صريحاً، وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة.

فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير، أو الأخير منها فقط: ﴿فإنه رجس﴾ وصف شامل لكل محرم، فإن المحرمات كلها رجس وخبث، وهي من الخبائث المستقدرة التي حرمها الله على عباده، صيانة لهم وتكرمة عن مباشرة الخبث الرجس.

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من السنة، فإنها تفسر القرآن، وتبين المقصود منه، فإذا كان الله تعالى لم يحرم من المطاعم إلا ما ذكر، والتحريم لا يكون مصدره إلا شرع الله - دل ذلك على أن المشركين، الذين حرموا ما رزقهم الله مفترون على الله، متقولون عليه ما لم يقل.

وفي الآية احتمال قوي، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير، وهو أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدمة، في تحريمهم لما أحله الله وخوضهم بذلك، بحسب ما سولت لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة، وليس منها محرم إلا ما ذكر في الآية: الميتة منها، وما أهل لغير الله

(١) في ب: كلها.

خاسر، فكيف إذا بناها على البغي والعداوة والشر والفساد؟

ومنها: أن الحجة لله البالغة، التي لم تبق لأحد عذراً، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة، فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الأدلة^(١) القاطعة باطل، لأن نقيض الحق لا يكون إلا باطلاً.

ومنها: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة يتمكن بها من فعل ما كُلف به، فلا أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن على تركه، فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر، ظلم محض وعتاد صرف.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم، فإن شاؤوا فعلوا، وإن شاؤوا كفوا. وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلاً في مشيئة الله، ومندرجاً تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك. فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك، بل لو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر، لما قبلوا منه هذا الاحتجاج، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب.

فيا عجباً كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه، ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم!!!

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصوداً، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحق، ويرون أن الحق بمنزلة الصائل، فهم يدفعونه بكل ما يحظر بهالهم من

الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ^(٢).

﴿١٥٠﴾ ﴿قل هللم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم يربهم يعدلون﴾ أي: قل لمن حرم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا، فإذا قيل لهم هذا الكلام، فهم بين أمرين:

إما: أن لا يحضروا أحداً يشهد بهذا، فتكون دعواهم إذا باطلة، خلية من الشهود والبرهان.

وإما: أن يحضروا أحداً يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أئيم غير مقبول الشهادة، وليس هذا من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدول؛ ولهذا قال تعالى - ناهياً نبيه وأتباعه عن هذه الشهادة -: ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم يربهم يعدلون﴾ أي: يسوون به غيره من الأنداد والأوثان.

فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحدين لله، كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق، فحري بهوى هذا شأنه، أن ينهى الله خيار خلقه عن اتباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حينئذ أن تحريمهم لما أحل الله صادر عن تلك الأهواء المضلة.

﴿١٥١ - ١٥٣﴾ ﴿قل تعالوا أتلق ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف

نفساً إلا وسعها وإذا قلتهم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء الذين حرّموا ما أحل الله: ﴿تعالوا أتلق ما حرّم ربكم عليكم﴾ تحريماً عاماً شاملاً لكل أحد، محتويًا على سائر المحرمات، من المأكل والمشرب والأقوال والأفعال. ﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً.

وحقيقة الشرك بالله: أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحدًا، مخلصاً لله في جميع أحواله، فهذا حق الله على عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

ثم بدأ يؤكد الحقوق بعد حقه فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ من الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة، فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق.

﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾ من ذكور وإناث ﴿من إملاق﴾ أي: بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم، كما كان ذلك موجوداً في الجاهلية الفاسية الظالمة، وإذا كانوا منهيين عن قتلهم في هذه الحال وهم أولادهم، فنهيمهم عن قتلهم لغير موجب، أو قتل أولاد غيرهم من باب أولى وأحرى.

﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ أي: قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق. ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾ وهي: الذنوب العظام المستفحشة، ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾

(١) في ب: الآية.

(٢) في ب: من الكلام المصيب عندهم والمخطف.

الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف، لا المجوس ولا غيرهم.

وفيه: ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن، من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب، الذين عندهم مادة العلم وغفلتهم عن دراسة كتبهم.

﴿١٥٨﴾ **«هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون»** يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم، **«إلا أن تأتيهم الملائكة**، ومقدمات الآخرة بأن تأتيهم تقضى أرواحهم، فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال لم ينفعهم الإيمان ولا صالح الأعمال. **«أو يأتي ربك** لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين. **«أو يأتي بعض آيات ربك»** الدالة على قرب الساعة.

«يوم يأتي بعض آيات ربك» الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت، وأن القيامة قد اقتربت. **«لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً»** أي: إذا وجد بعض آيات الله لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن، ولا المؤمن المصير أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير المرجو قبل أن يأتي بعض الآيات.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، بمن إذا رأى الموت أقلع عما هو فيه، كما قال تعالى: **«فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين**. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، سنة الله التي قد خلت في عباده».

فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعملاً.

«أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين» أي: أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعاً لحجتكم، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، أي: اليهود والنصارى.

«وإن كنا عن دراستهم لغافلين» أي: تقولون لم تنزل علينا كتاباً، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتاباً، لم ينزل من السماء كتاب أجمع ولا أوضح ولا أبين منه.

«أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم» أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا، [بعدم] بكمالها وتمامها، فحصل لكم بكتابكم أصل الهداية وكمالها، ولهذا قال: **«فقد جاءكم بينة من ربكم»** وهذا اسم جنس يدخل فيه كل ما يبين الحق **«وهدى»** من الضلالة **«ورحمة»** أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم، فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه والإيمان بأخباره، وأن من لم يرفع به رأساً وكذب به، فإنه أظلم الظالمين، ولهذا قال: **«فمن أظلم ممن كذب بايات الله وصدق عنها»** أي: أعرض ونأى بجانبه.

«سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب» أي: العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه. **«بما كانوا يصدفون»** لأنفسهم ولغيرهم، جزاء لهم على عملهم السيئ **«وما ربك بظلام للعبيد»**.

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلى تحرص المتكلمين، ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين.

وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا على الطائفتين، [آمن] اليهود والنصارى، فهم أهل الكتاب عند



من أمة موسى، فإن أنعم على المحسنين منهم بنعم لا تحصى. من جللتها وتامها إنزال التوراة عليهم. فتمت عليهم نعمة الله، ووجب عليهم القيام بشكرها.

«وتفصيلاً لكل شيء» يحتاجون إلى تفصيله، من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والعقائد ونحوها. **«وهدى ورحمة»** أي: يهديهم إلى الخير، ويعرفهم بالشر، في الأصول والفروع. **«ورحمة»** يحصل به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير. **«لعلهم»** بسبب إنزالنا الكتاب والبيئات عليهم **«بلىقاء ربهم يؤمنون»** فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال، ما يوجب لهم الإيمان بقاء ربهم والاستعداد له.

«وهذا» القرآن العظيم، والذكر الحكيم. **«كتاب أنزلناه مبارك»** أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحث عليه، وما من شر، إلا وقد نهى عنه وحذر منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة **«فاتبعوه»** فيما يأمر به وينهى، وابتوا أصول دينكم وفروعه عليه **«واقفوا»** الله تعالى أن تحالفوا له **«أمرأ لعلكم»** إن اتبعتموه **«ترحمون»**

أديان أهل الانحراف، كاليهود والنصارى والمشركون .

وهذا عموم، ثم خصص من ذلك أشرف العبادات فقال: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحبياتي لشفق لدينك ولتسليمي لدينك وعلى وجهي التقوى﴾ وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى .

وَمَنْ أَخْلَصَ فِي صَلَاتِهِ وَنَسَكَ، اسْتَلْزَمَ ذَلِكَ إِخْلَاصَهُ لِلَّهِ فِي سَائِرِ أَعْمَالِهِ . وقوله: ﴿ومحبياتي ومحبياتي﴾ أي: ما أتيت في حياتي، وما يجريه الله علي، وما يقدر علي في عماتي الجميع ﴿الله رب العالمين لا شريك له﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداءً مني، وبدءاً أتيت من تلقاء نفسي، بل ﴿بذلك أمرت﴾ أمراً حتماً، لا أخرج من التبعية إلا بامثاله ﴿وأنا أول المسلمين﴾ من هذه الأمة .

﴿قل أغير الله﴾ من المخلوقين ﴿أبغى رباً﴾ أي: أيحس ذلك ويليق بي، أن أتخذ غيره مريباً ومدبراً والله رب كل شيء، فالحلق كلهم داخلون تحت ربوبيته، متقادون لأمره!!؟

فتعين علي وعلى غيري، أن يتخذ الله رباً، ويرضى به، وألا يتعلق بأحد من المريبين الفقراء العاجزين .

ثم رغب ورهب بذكر^(١) الجزاء فقال: ﴿ولا تكسب كل نفس﴾ من خير وشر ﴿إلا عليها﴾ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ .

﴿ولا تسز وازرة وزر أخري﴾ بل كل عليه وزر نفسه، وإن كان أحد قد تسبب في ضلال غيره ووزره، فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء .

﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ يوم

بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية . وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم فقال: ﴿لست منهم في شيء﴾ أي: لست منهم وليسوا منك، لأنهم خالفوك وعاندوك ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾ يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم ﴿ثم ينبتهم بما كانوا يفعلون﴾ .

ثم ذكر صفة الجزاء، فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ القولية والفعلية، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله أو حق خلقه ﴿فله عشر أمثالها﴾ هذا أقل ما يكون من التضعيف .

﴿ومَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِي إِلَّا مِثْلُهَا﴾ وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وهم لا يظلمون﴾ .

﴿١٦٥ - ١٦٥﴾ ﴿قل إنني هادي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ قل إن صلاتي ونسكي ومحبياتي ومحبياتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين * قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون * وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم * يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم: الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصاً إمام الختفاء، ووالد من بعث من بعد موته من الأنبياء، خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الحنيف المائل عن كل دين غير مستقيم، من

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله، طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويغلق حينئذ باب التوبة . ولما كان هذا وعيداً للمكذابين بالرسول ﷺ منتظراً، وهم ينتظرون بالنبي ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور، قال: ﴿قل انتظروا إننا منتظرون﴾ فستعلمون أننا أحق بالأمن .

وفي هذه الآية دليل لذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى، كالأستواء والنزول، والإتيان لله تبارك وتعالى، من غير تشبيه له بصفات المخلوقين .

وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير، وفيه أن من جملة أشراف الساعة طلوع الشمس من مغربها . وأن الله تعالى حكيم قد جرت عادته وسنته، أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختيارياً لا اضطرارياً، كما تقدم .

وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه . فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو إذا كان مع العبد الإيمان . فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك .

﴿١٥٩ - ١٦٠﴾ ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبتهم بما كانوا يفعلون﴾ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها وهم لا يظلمون يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم، أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكل أخذ لنفسه نصيباً من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئاً، كاليهودية والنصرانية والمجوسية . أو لا يكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئاً ويجعله دينه، ويدع مثله، أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمفرقين للأمة .

ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر

القيامة ﴿فنبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ من خير وشر، ويجازيكم على ذلك، أوفى الجزاء .

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي: يخلف بعضكم بعضاً، واستخلفكم الله في الأرض، وسخر لكم جميع ما فيها، وابتلاككم، لينظر كيف تعملون .

﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ في القوة والعافية، والرزق والخلق والخلق . ﴿ليلوكم فيما آتاكم﴾ فتفاوتت أعمالكم . ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ لمن عصاه وكذب آياته ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن آمن به وعمل صالحاً، وتاب من الموبقات .

آخر تفسير سورة الأنعام، فله الحمد والثناء وصلّى الله وسلم على نبينا محمد [وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين] (١).

المجلد الثالث من تيسير الرحمن في تفسير القرآن لعامه الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر المعدي.

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الأعراف مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم المص﴾ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون * وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون * فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين * فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين * فلتقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين * يقول تعالى لرسوله

محمد ﷺ مبيناً له عظمة القرآن: ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي: كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكماً مفصلاً ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي: ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ وأنه أصدق الكلام فلينشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تخش لائماً ومعارضاً .

﴿لتنذر به﴾ الخلق، فتعظهم وتذكرهم، فتقوم الحجّة على المعاندين . ﴿و﴾ ليكون ﴿ذكرى للمؤمنين﴾ كما قال تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد وبين سلوكه .

ثم خاطب الله العباد، وألفتهم إلى الكتاب فقال: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم، وهو ﴿من ربكم﴾ الذي يريد أن يتم تربيته لكم، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي، إن اتبعتموه كملت تربيتكم، وتمت عليكم النعمة، وهديتكم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي: تتولونهم وتتبعون أهواءهم، وتتركون لأجلها الحق .

﴿قليلاً ما تذكرون﴾ فلو تذكرتم وعرفتم المصلحة، لما آثرتهم الضار على النافع، والعدو على الولي . ثم حذرهم عقوباته للأمة الذين كذبوا ما جاءهم به رسلمهم، لثلاً يشابههم (٢) فقال: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا﴾ أي: عذابنا الشديد ﴿بياتاً أو هم قائلون﴾ أي: في

حين غفلتهم، وعلى غرتهم غافلون، لم يخطر الهلاك على قلوبهم . فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي .

﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ كما قال تعالى: ﴿وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون * قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين .

وقوله: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ أي: لنسألن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين، عما أجابوا به رسلمهم ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبت المرسلين﴾ الآيات .

﴿ولنسألن المرسلين﴾ عن تبليغهم لرسالات ربهم، وعما أجابتهم به أعمهم .

﴿فلتقصن عليهم﴾ أي: على الخلق كلهم ما عملوا ﴿بعلم﴾ منه تعالى لأعمالهم ﴿وما كنا غائبين﴾ في وقت من الأوقات، كما قال تعالى: ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ وقال تعالى: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾ .

﴿٨-٩﴾ ثم ذكر الجزاء على الأعمال، فقال: ﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ أي: والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط، الذي لا جور

(١) زيادة من ب، وقد جاء بعدها قول الناسخ: (وكان الفراغ من كتابته في يوم الجمعة الموافق خمس وعشرين من جمادى الآخرة، سنة ١٣٤٥هـ، بقلم الفقير إلى ربه المتان: علي الحسن العلي الحسن البريكاني، وقد نسخته على نسخة المؤلف غفر الله له وأتابه على ذلك الثواب الجزيل، وجزاه الله عتاً وعن جميع المسلمين أفضل الجزاء في دار الجزاء، وأدخله الله برحمته فسيح الجنان، ووقانا وإياه عذاب النيران بفضلته وكرمه، إنه قريب مجيب، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين ثم آمين يا رب العالمين .

(٢) في ب: فلا يشابهونهم .



وأشهرهم .

﴿فأخرج إنك من الصاغرين﴾ أي :
المهائين الأذلين ، جزاء على كبره وعجبه
بالإهانة والذل .

فلما أعلن عدو الله بعداوة الله ،
وعداوة آدم وذريته ، سأل الله النظرة
والإمهال إلى يوم البعث ، ليتمكن من
إغواء ما يقدر عليه من بني آدم ، ولما
كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد
واختبارهم ، ليتبين الصادق من
الكاذب ، ومن يطيعه ممن يطيع عدوه ،
أجابته لما سأل ، فقال : ﴿إنك من
المنظرين﴾ .

﴿١٦ - ١٧﴾ قال فيما أغويتني
لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم
لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم
وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد
أكثرهم شاكركين * أي : قال إبليس -
لما أبلس وأبس من رحمة الله - ﴿فبما
أغويتني لأقعدن لهم﴾ أي : للخلق
﴿صراطك المستقيم﴾ أي : لألزم من
الصراط ولأسعى غاية جهدي على صد
الناس عنه وعدم سلوكهم إياه .

﴿ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن
خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾
أي : من جميع الجهات والجوانب ، ومن
كل طريق يتمكن فيه من إدراك بعض
مقصوده فيهم .

لفضله ، فامتثلوا أمر ربهم ،
﴿فسجدوا﴾ كلهم أجمعون ﴿إلا
إبليس﴾ أي أن يسجد له ، تكبراً عليه
وإعجاباً بنفسه ، فوبخه الله على ذلك
وقال : ﴿ما منعك ألا تسجد﴾ لما
خلقت بيدي ، أي : شرفته وفضلته
بهذه الفضيلة ، التي لم تكن لغيره ،
فصعيت أمري وتهاوت بي؟

﴿قال﴾ إبليس معارضاً لربه : ﴿أنا
خير منه﴾ ثم برهن على هذه الدعوى
الباطلة بقوله : ﴿خلقتني من نار
وخلقت من طين﴾ وموجب هذا أن
المخلوق من نار أفضل من المخلوق من
طين ، لعلو النار على الطين وصعودها ،
وهذا القياس من أفسد الأقيسة ، فإنه
باطل من عدة أوجه :

منها : أنه في مقابلة أمر الله له
بالسجود ، والقياس إذا عارض النص ،
فإنه قياس باطل ، لأن المقصود
بالقياس ، أن يكون الحكم الذي لم يأت
فيه نص ، يقارب الأمور المنصوص
عليها ، ويكون تابعاً لها .

فأما قياس يعارضها ، ويلزم من
اعتباره إلغاء النصوص ، فهذا القياس
من أشنع الأقيسة .

ومنها : أن قوله : ﴿أنا خير منه﴾
بمجرد ما كافي لنقص إبليس الخبيث .
فإنه برهن على نقصه بإعجابته بنفسه
وتكبره ، والقول على الله بلا علم .
وأي : نقص أعظم من هذا!!

ومنها : أنه كذب في تفضيل مادة
النار على مادة الطين والتراب ، فإن مادة
الطين فيها الخشوع والسكون والرزانة ،
ومنهما تظهر بركات الأرض من
الأشجار وأنواع النبات ، على اختلاف
أجناسه وأنواعه ، وأما النار ففيها الخفة
والطيش والإحراق .

ولهذا لما جرى من إبليس ما جرى ،
انحط من مرتبته العالية إلى أسفل
السافلين ، فقال الله له : ﴿فاهبط
منها﴾ أي : من الجنة ﴿فما يكون لك
أن تتكبر فيها﴾ لأنها دار الطيبين
الطاهرين ، فلا تليق بأخبث خلق الله

فيه ولا ظلم بوجه . ﴿فمن ثقلت
موازنته﴾ بأن رجحت كفة حسنة على
سيئاته ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي :
الناجون من المكروه ، المدركون
للمحبوب الذين حصل لهم الريح
العظيم ، والسعادة الدائمة .

﴿ومن خفت موازينه﴾ بأن رجحت
سيئاته ، وصار الحكم لها ، ﴿فأولئك
الذين خسروا أنفسهم﴾ إذ فاتهم النعيم
القيم ، وحصل لهم العذاب الأليم
﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ فلم يقدروا
لها كما يجب عليهم ذلك .

﴿١٠﴾ ﴿ولقد مكناكم في الأرض
وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما
تشكرون﴾ يقول تعالى تمتاً على عباده
بذكر المسكن والمعيشة : ﴿ولقد مكناكم
في الأرض﴾ أي : هيأنا لها لكم ، بحيث
تتمكنون من البناء عليها وحرثها ،
ووجوه الانتفاع بها ﴿وجعلنا لكم فيها
معاش﴾ مما يخرج من الأشجار
والنبات ، ومعادن الأرض ، وأنواع
الصناعات والتجارات ، فإنه هو الذي
هيأها وسخر أسبأها .

﴿قليلاً ما تشكرون﴾ الله ، الذي
أنعم عليكم بأصناف النعم ، وصرف
عنكم النعم .

﴿١١ - ١٥﴾ ﴿ولقد خلقناكم ثم
صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من
الساجدين﴾ * قال ما منعك ألا تسجد
إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من
نار وخلقت من طين * قال فاهبط منها
فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج
إنك من الصاغرين * قال أنظرني إلى
يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين *
يقول تعالى مخاطباً لبني آدم : ﴿ولقد
خلقناكم﴾ بخلق أصلكم ومادتهم التي
منها خرجتم : أبيكم آدم عليه السلام
﴿ثم صورناكم﴾ في أحسن صورة
وأحسن تقويم ، وعلمه الله تعالى ما به
تكمل صورته الباطنة ، أسماء كل
شيء .

ثم أمر الملائكة الكرام أن يسجدوا
لآدم ، إكراماً واحتراماً ، وإظهاراً

عورائهما، ولما ظهرت عورائهما خجلا وجعلا يخصفان على عورائهما من أوراق شجر الجنة، ليستترا بذلك. ﴿وناداهما ربهما﴾ وهما بتلك الحال موبخاً ومعاتباً: ﴿ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ فلم اقترفتما المنهي، وأطعتما عدوكما؟ فحيثئذ من الله عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا من الله مغفرته فقالا: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي: قد فعلنا الذنب، الذي نهيتنا عنه، وضرينا أنفسنا باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا، بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا. فغفر الله لهما ذلك ﴿وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى﴾.

هذا وإبليس مستمر على طغيانه، غير مقلع من عصيانه، فمن أشبه آدم بالاقرار وسؤال المغفرة والسندم والإقلاع - إذا صدرت منه الذنوب - اجتبه الله وهداه.

ومن أشبه إبليس - إذا صدر منه الذنب، لا يزال يزداد من المعاصي - فإنه لا يزداد من الله إلا بعداً.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سواتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلمهم يذكرون﴾ أي: لما أهبط الله آدم وزوجه وذريتهما إلى الأرض، أخبرهما بحال إقامتهم فيها، وأنه جعل لهم فيها حياة يتلوهما الموت، مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، وينزل عليهم كتبه، حتى يأتيهم الموت، فيدفنون فيها، ثم إذا استكملوا بعثهم الله وأخرجهم منها إلى الدار التي هي الدار حقيقة، التي هي دار المقامة.

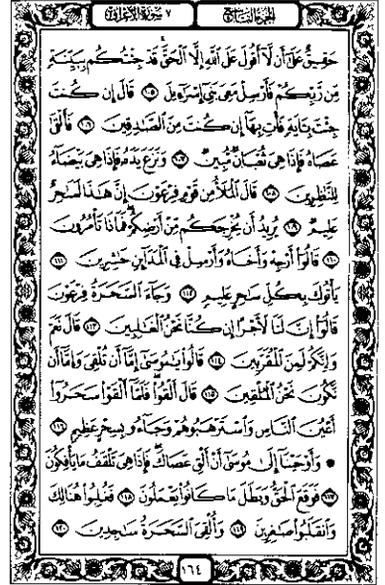
ثم امتن عليهم بما يسر لهم من اللباس الضروري، واللباس الذي

﴿١٩ - ٢٣﴾ ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ فوسوس لهما الشيطان لييدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما وقال ما نهاكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فدلها بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين * قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي:

أمر الله تعالى آدم وزوجه حواء، التي يأكلان من الجنة حيث شاءا ويتمتعان فيها بما أرادا، إلا أنه عين لهما شجرة، ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا. وحزم عليهما أكلها، بدليل قوله: ﴿فتكونا من الظالمين﴾ فلم يزالا عمتلين لأمر الله، حتى تغلغل إليهما عدوهما إبليس بمكره، فوسوس لهما وسوسة خدعتهما بها، وموه عليهما وقال: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين﴾ أي: من جنس الملائكة (أو تكونا من الخالدين) كما قال في الآية الأخرى: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ ومع قوله هذا أقسم لهما بالله ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ أي: من جملة الناصحين حيث قلت لكما ما قلت، فاعترا بذلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل.

﴿فدلها﴾ أي: تزلهما عن رتبتهما العالية، التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوضارها، فأدما على أكلها.

﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما﴾ أي: ظهرت عورة كل منهما بعدما كانت مستورة، فصار العري الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر، حتى انخلع فظهرت



ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازماً ببذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدق ظنه فقال: ﴿ولا تحمد أكثرهم شاكرين﴾ فإن القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه، وعدم قيامهم به، قال تعالى: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

وإنما نهينا الله على ما قال وعزم على فعله، لناخذ منه حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا، بالطرق التي يأتي منها، ومدخله التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

﴿١٨﴾ ﴿قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ أي: قال الله لإبليس لما قال ما قال: ﴿اخرج منها﴾ خروج صفار واحتقار، لا خروج إكرام بل ﴿مذموماً﴾ أي: مذموماً ﴿مدحوراً﴾ مبعداً عن الله وعن رحمته وعن كل خير.

﴿لأملأن جهنم﴾ منك ومن تبعك منهم ﴿أجمعين﴾ وهذا قسم منه تعالى أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

ثم حذر آدم شره وقتته فقال:

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَاءَةٌ لِّسَيِّئٍ مِّمَّا كَفَرَ فَأُولَٰئِكَ قَبْرُهُمْ عَلَىٰ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٧﴾
 أَمْ كَلِمَةٌ تَأْتِي الْبَشَرَ إِلَّا الْكَلِمَةُ السَّامِيَّةُ ﴿١٧٨﴾
 قَالَ أَتَقْتُلُونَ ﴿١٧٩﴾ إِنَّ هَذِهِ نَجْمٌ مِّمَّا يُنذِرُونَ ﴿١٨٠﴾
 وَيَعْلَمُ تِلْكَ الْأَنبِيَاءُ بِمَوَاقِعِ الْقَوْلِ ﴿١٨١﴾ قَالَ أَتَقْتُلُونَ ﴿١٨٢﴾
 إِنَّمَا نَعْتَدُ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٨٣﴾ وَإِذْ أَخْبَرْنَا لُقْمَانَ ﴿١٨٤﴾
 إِنَّمَا نَحْنُ آيَاتٌ يُنذِرُكُمْ سُنَّةَ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٥﴾ وَذَلِكَ
 لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٨٦﴾ وَذَلِكَ لِيُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٨٧﴾ وَذَلِكَ لِيُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٨٨﴾ وَذَلِكَ لِيُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٨٩﴾ وَذَلِكَ لِيُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٩٠﴾ وَذَلِكَ لِيُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٩١﴾ وَذَلِكَ لِيُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٩٢﴾ وَذَلِكَ لِيُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٩٣﴾ وَذَلِكَ لِيُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٩٤﴾ وَذَلِكَ لِيُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٩٥﴾ وَذَلِكَ لِيُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٩٦﴾ وَذَلِكَ لِيُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٩٧﴾ وَذَلِكَ لِيُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٩٨﴾ وَذَلِكَ لِيُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٩٩﴾ وَذَلِكَ لِيُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿٢٠٠﴾

نجزي المجرمين * لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم عواش وكذلك نجزي الظالمين * يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته فلم يؤمن بها، مع أنها آيات بينات، واستكبر عنها فلم ينقد لأحكامها، بل كذب وتولى، أنهم آيسون من كل خير، فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا وصعدت تريد العروج إلى الله، فستأذن فلا يؤذن لها، كما لم تصعد في الدنيا إلى الإيمان بالله ومعرفته ومحبه، كذلك لا تصعد بعد الموت، فإن الجزء من جنس العمل.

ومفهوم الآية أن أرواح المؤمنين المتقادين لأمر الله المصدقين بآياته، تفتح لها أبواب السماء حتى تعرج إلى الله، وتصل إلى حيث أراد الله من العالم العلوي، وتتهج بالقراب من ربه والحظوة برضوانه.

وقوله عن أهل النار ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل﴾ وهو البعير المعروف ﴿في سم الخياط﴾ أي: حتى يدخل البعير الذي هو من أكبر الحيوانات جسماً، في خرق الإبرة، الذي هو من أصبغ الأشياء، وهذا من باب تعليق الشيء بالمحال، أي: فكما أنه محال دخول الجمل في سم الخياط، فكذلك المكذبون بآيات الله محال دخولهم الجنة، قال تعالى: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة

على ما مضيتم عليه من الكفر والاستكبار، فاستحق الجميع الحزى والبوار، كلما دخلت أمة من الأمم العاتية النار ﴿لعنت أختها﴾ كما قال تعالى: ﴿ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ حتى إذا اذركوا فيها جميعاً أي: اجتمع في النار جميع أهلها، من الأولين والآخرين، والقادة والرؤساء، والمقلدين الأتباع.

﴿قالت أحرأهم﴾ أي: متأخروهم، المتبعون للرؤساء ﴿لأولاهم﴾ أي: لرؤسائهم، شاكين إلى الله إضلالهم إياهم: ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ أي: عذبهم عذاباً مضاعفاً لأنهم أضلونا، وزينوا لنا الأعمال الخبيثة.

﴿٣٩﴾ ﴿وقالت أولاهم لأحرأهم﴾ أي: الرؤساء قالوا لأتباعهم: ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ أي: قد اشتركتنا جميعاً في الغي والضلال، وفي فعل أسباب العذاب، فأبي: فضل لكم علينا؟ قال ﴿الله لكل منكم﴾ ضعف و نصيب من العذاب.

﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ ولكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال، أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائهم أعظم من ثواب الأتباع، قال تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ فهذه الآيات ونحوها، دلّت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله، مغلدون في العذاب، مشتركون فيه وفي أصله، وإن كانوا متفاوتين في مقداره، بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافتراءهم، وأن موردتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعة.

﴿٤٠ - ٤١﴾ ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك

أحكامه، ثم ذكر فضل من استجاب لهم، وخسار من لم يستجب لهم فقال: ﴿ومن اتقى﴾ ما حزم الله، من الشرك والكبائر، والصغائر، ﴿وأصلح﴾ أعماله الظاهرة والباطنة ﴿فلا خوف عليهم﴾ من الشر الذي قد يخافه غيرهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما مضى، وإذا انتفى الخوف والحزن حصل الأمن التام، والسعادة، والفلاح الأبدي.

﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها﴾ أي: لا آمنت بها قلوبهم، ولا انقادت لها جوارحهم، ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ كما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

﴿٣٧﴾ ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءهم رسلمان يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً بنسبة الشريك له، أو النقص له، أو التقول عليه ما لم يقل، ﴿أو كذب بآياته الواضحة المبينة للحق المبين، الهادية إلى الصراط المستقيم، فهؤلاء وإن تمتعوا بالدنيا، ونالهم نصيبهم بما كان مكتوباً لهم في اللوح المحفوظ، فليس ذلك بمغتن عنهم شيئاً، يتمتعون قليلاً، ثم يعذبون طويلاً،﴾ حتى إذا جاءهم رسلمان يتوفونهم﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم. ﴿قالوا﴾ لهم في تلك الحالة توبيخاً وعتاباً ﴿أين ما كنتم تدعون من دون الله﴾ من الأصنام والأوثان، فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة. ﴿قالوا ضلوا عنا﴾ أي: اضمحلوا وبطلوا، وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شيء. ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ مستحقين للعذاب المبين الدائم.

فقال لهم الملائكة ﴿ادخلوا في أمم﴾ أي: في جملة أمم ﴿قد خلقت من قبلكم من الجن والإنس﴾ أي: مضوا



الظاهرة والباطنة مالا يحصيه المحصون، ولا يعده العادون، ﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ أي: ليس في نفوسنا قابلية للهدى، لولا أنه تعالى من هدايته واتباع رسله.

﴿لقد جاءت رسلنا بالحق﴾ أي: حين كانوا يتمتعون بالنعيم الذي أخبرت به الرسل، وصار حق يقين لهم بعد أن كان علم يقين لهم، قالوا لقد تحققنا، ورأينا ما وعدتنا به الرسل، وأن جميع ما جازوا به حق اليقين، لا مرية فيه ولا إشكال، ﴿ونودوا﴾ أي: أن تلكم الجنة أورتهموها، أي: كنتم الوارثين لها، وصارت إقطاعاً لكم، إذ كان إقطاع الكفار النار، أورتهموها ﴿بما كنتم تعملون﴾.

قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة، وهي من رحمته، بل من أعلى أنواع رحمته.

﴿٤٤ - ٤٥﴾ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين * الذين يصدون عن سبيل الله ويغفونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون ﴿يقول تعالى لما ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين، ووجدوا ما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب، من الثواب والعقاب، أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً﴾ حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح الجنة، فأدخلناها، وأرأنا ما وصفه لنا ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم﴾ على الكفر والمعاصي ﴿حقاً قالوا نعم﴾ قد وجدناه حقاً، فتبين للخلق كلهم، بياناً لا شك فيه، صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قبلاً، وذهبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون بوعد الله واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على

الحال أن تنقي الله بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي يقدر عليها غيرها سقطت عنها، كما قال تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ لا يكلف الله نفساً إلا ما جعل عليكم في الدين من حرج ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة.

﴿أولئك﴾ أي: المتصفون بالإيمان والعمل الصالح ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي: لا يموتون فيها ولا يبغون بها بدلاً، لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات وأصناف المشتهايات ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب أعلى منه.

﴿ونزعتنا ما في صدورهم من غل﴾ وهذا من كرمه وإحسانه على أهل الجنة، أن الغل الذي كان موجوداً في قلوبهم، والتنافس الذي بينهم، أن الله يقلعه ويزيله حتى يكونوا إخواناً متحابين، وأخلاء متصافين.

قال تعالى: ﴿ونزعتنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سمر متقابلين﴾ ويخلق الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم، فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض، لأنه قد فقدت أسبابه.

وقوله: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي: يفجرونها تفجيراً، حيث شأوا، وأيسن أرادوا، إن شاءوا في خلال القصور، أو في تلك الغرف العاليات، أو في رياض الجنات، من تحت تلك الحدائق الزاهرات أنهار تجري في غير أخدود، وخيرات ليس لها حد محدود ﴿وللهذا لما رأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به﴾ قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴿بأن من علينا وأوحى إلى قلوبنا، فآمنت به، وانتقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار، وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا، حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار، فنعم الرب الكريم، الذي ابتدأنا بالنعيم، وأسدى من النعم

ومأواه النار﴾ وقال هنا ﴿وكذلك نجزي المحرمين﴾ أي: الذين كشر إجرامهم واشتد طغيانهم.

﴿لهم من جهنم مهاد﴾ أي: فراش من تحتهم ﴿ومن فوقهم غواش﴾ أي: ظلل من العذاب، تغشاهم. ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ لأنفسهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * ونزعتنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسلنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورتهموها بما كنتم تعملون ﴿لما ذكر الله تعالى عقاب العاصين الظالمين، ذكر ثواب المطيعين فقال: ﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم ﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، ولما كان قوله: ﴿وعملوا الصالحات﴾ لفظاً عاماً يشمل جميع الصالحات الواجبة والمستحبة، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد، قال تعالى: ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها، ولا يعسر على قدرتها، فعليها في هذه

أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب .
﴿فَأَذْنُ مَوْذَنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي : بين أهل النار وأهل الجنة ، بأن قال ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أي : بعده وإقصاؤه عن كل خير ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إذ فتح الله لهم أبواب رحمته ، فصدفوا أنفسهم عنها ظلماً ، وصدوا عن سبيل الله بأنفسهم ، وصدوا غيرهم ، فضلوا وأضلوا .

والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة ، ويعتدل سير السالكين إليه ، ﴿و﴾ هؤلاء يريدونها ﴿عَوِجاً﴾ منحرفة صادة عن سواء السبيل ، ﴿وهم﴾ بالآخرة كافرون ﴿وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط ، والإقبال على شهوات النفوس المحرمة ، عدم إيمانهم بالبعث ، وعدم خوفهم من العقاب ورجائهم للشواب ، ومفهوم هذا النداء أن رحمة الله على المؤمنين وبره شامل لهم ، وإحسانه متواتر عليهم .

﴿٤٦ - ٤٩﴾ ﴿وبينهما حجابٌ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون﴾ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴿أي : وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب يقال له : ﴿الأعراف﴾ لا من الجنة ولا من النار ، يشرف على الدارين ، وينظر من عليه حال الفريقين ، وعلى هذا الحجاب رجال يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بسيماهم ، أي : علاماتهم ، التي بها يعرفون ويميزون ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوهم ﴿أن سلام عليكم﴾ أي : إلى جيوتهم ويسلمون عليهم ، وهم - إلى الآن - لم يدخلوا الجنة ، ولكنهم

يطمعون في دخولها ، ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يريد بهم من كرامته .

﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ ورأوا منظرأ شنيعاً ، وهو لا فظيماً ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ فأهل الجنة إذا رآهم أهل الأعراف^(١) يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة ، ويحيونهم ويسلمون عليهم ، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار ، يستجيرون بالله من حالهم هذا على وجه العموم .

ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال : ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم﴾ وهم من أهل النار ، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف ، وأموال وأولاد ، فقال لهم أصحاب الأعراف ، حين رأوهم منفردين في العذاب ، بلا ناصر ولا معيذ : ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ في الدنيا ، الذي تستدفون به الكاره ، وتتوسلون به إلى مطالبكم في الدنيا ، فاليوم اضمحل ، ولا أغنى عنكم شيئاً ، وكذلك ، أي شيء نفعكم استكباركم على الحق وعلى من جاء به وعلى من اتبعه ، ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار ، فقالوا لأهل النار : ﴿أهؤلاء﴾ الذين أدخلهم الله الجنة ﴿الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ احتقاراً لهم وازدراء وإعجاباً بأنفسكم ، قد حنثتم في أيمانكم ، وبدالك من الله ما لم يكن لكم في حساب ، ﴿ادخلوا الجنة﴾ بما كنتم تعملون ، أي : قيل لهؤلاء الضعفاء إكراماً واحتراماً : ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة ﴿لا خوف عليكم﴾ فيما يستقبل من المكارة ﴿ولا أنتم تحزنون﴾ على ما مضى ، بل آمنون مطمئنون فرحون بكل خير .

وهذا كقوله تعالى : ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ وإذا مروا بهم يتغامزون ﴿

إلى أن قال : ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ على الأرائك ينظرون ﴿واختلف أهل العلم والمفسرون ، من هم أصحاب الأعراف ، وما أعمالهم؟

والصحيح في ذلك ، أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار ، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة ، فصاروا في الأعراف ما شاء الله ، ثم إن الله تعالى يدخلهم برحمته الجنة ، فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه ، ورحمته وسعت كل شيء .

﴿٥٠ - ٥٣﴾ ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرّبهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴿ولقد جننناهم بكتاب فضلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسلنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردّ فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴿أي : ينادى أصحاب النار أصحاب الجنة ، حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ ، وحين يسهم الجوع المقرط والظمأ الموجع ، يستغيثون بهم ، فيقولون : ﴿أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ من الطعام ، فأجابهم أهل الجنة بقولهم : ﴿إن الله حرمهما﴾ أي : ماء الجنة وطعامها ﴿على الكافرين﴾ وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله ، واتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه ، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه .

﴿لهواً ولعباً﴾ أي : لهدى قلوبهم وأعرضت عنه ، ولعبوا واتخذوه سخرياً ، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب ، واستعاضوا بذلك عن

الدين القيم .

﴿وَعَزَّمْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بزيئتها وزخرفها وكثرة دعائها، فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها .

﴿فَالْيَوْمَ نُنَاسِهِمْ﴾ أي: نتركهم في العذاب ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء .

﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ والحال أن جحودهم هذا لا عن قصور في آيات الله وبيناته، بل قد ﴿جئناهم بكتاب فصلناه﴾ أي: بينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق ﴿على علم﴾ من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور، فتجهله بعض الأحوال، فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء .

﴿هَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغني والرشد، ويحصل أيضاً لهم به الرحمة، وهي: الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فيتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء .

وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب، لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم، ولا انقادوا لأوامره ونواهيه، فلم يبق فيهم حيلة إلا استحقاقهم أن يحل بهم ما أخبر به القرآن .

ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: وقوع ما أخبر به، كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلِ .﴾

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلٍ﴾ متقدمين متأسفين على ما مضى منهم، متشفعين في مغفرة ذنوبهم . مقرين بما أخبرت به الرسل: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا .

﴿فَمَا تَفْعَلُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ .

وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم كذب منهم، مقصودهم به دفع ما حل بهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ .

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ حين فوتوا الأرباح، وسلخوا بها سبيل الهلاك، وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث أو الأولاد، إنما هذا خسران لا جبران لمصابه، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا بما تمنىهم أنفسهم به، ويعددهم به الشيطان، قدموا على ما لم يكن لهم في حساب، وتبين لهم باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءتهم به الرسل .

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْجُرَاتٌ بِأَمْرِ آلِهَةِ الْخَلْقِ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول تعالى مبيناً أنه الرب المعبود وحده لا شريك له: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما فيهما على عظمهما وسعتهما، وإحكامهما وإتقانها، وبداع خلقهما .

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، فلما قضاها وأودع فيهما من أمره ما أودع ﴿استوى﴾ تبارك وتعالى ﴿على العرش﴾ العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ودبر الممالك، وأجرى عليهم أحكامه الكونية، وأحكامه الدينية، ولهذا قال: ﴿يَغْشَى اللَّيْلَ﴾ المظلم ﴿النَّهَارَ﴾ المضيء، فيظلم ما على وجه الأرض، ويسكن الآدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها، ويستريحون من التعب والذهاب والإياب الذي حصل لهم في النهار .

﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء النهار ذهب

الليل، وهكذا أبداً على الدوام، حتى يطوي الله هذا العالم، وينقل العباد إلى دار غير هذه الدار .

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْجُرَاتٌ بِأَمْرِ﴾ أي: بتسخيره وتدبيره، الدال على ماله من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمها دال على كمال قدرته، وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال على سعة رحمته وذلك دال على سعة علمه، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له .

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق: يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي: عظم وتعالى وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير، فكل بركة في الكون، فمن آثار رحمته، ولهذا قال: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ .

ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يدل ذوي الألباب على أنه وحده، المعبود المقصود في الخواتج كلها، أمر بما يترتب على ذلك، فقال:

﴿٥٥ - ٥٦﴾ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمئناً إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴿الدعاء يدخل فيه دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فأمر بدعائه ﴿تضرعاً﴾ أي: إلحاحاً في المسألة، ودؤوباً في العبادة، ﴿وخفية﴾ أي: لا جهراً وعلانية يخاف منها الرباء، بل خفية وإخلاصاً لله تعالى .

﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء كون العبد يسأل الله مسائل



أي: الرياح المبشرات بالغيث، التي تشير به بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله.

﴿حتى إذا أقلت﴾ الرياح ﴿سحاباً ثقالاً﴾ قد أثاره بعضها، وألفه ريح أخرى، والقحمة ريح أخرى ﴿سقناه لبلد ميت﴾ قد كادت تهلك حيواناته، وكاد أهله أن يياسوا من رحمة الله، ﴿فأنزلنا به﴾ أي: بذلك البلد الميت ﴿الماء﴾ الغزير من ذلك السحاب وسخر الله له ريحاً تدره وتفرقه بإذن الله.

﴿فأخرجنا به من كل الثمرات﴾ فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، راتعين بخير الله، وقوله: ﴿كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، بعدما كانوا رفاتاً متمزقين، وهذا استدلال واضح، فإنه لا فرق بين الأمرين، فمنكر البعث استبعاد له - مع أنه يرى ما هو نظيره - من باب العناد، وإنكار المحسوسات.

وفي هذا الحث على التذكر والتفكير في آلاء الله، والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال، لا بعين الغفلة والإهمال.

﴿٥٨﴾ ثم ذكر تفاوت الأراضي، التي ينزل عليها المطر، فقال: ﴿والبلد الطيب﴾ أي: طيب التربة والمادة، إذا نزل عليه مطر ﴿يخرج نباته﴾ الذي هو مستعد له ﴿بإذن ربه﴾ أي: بإرادة الله ومشيبته، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء، حتى بإذن الله بذلك.

﴿والذي خبث﴾ من الأراضي ﴿لا يخرج إلا نكدا﴾ أي: إلا نباتاً خاساً لا نفع فيه ولا بركة.

﴿كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ أي: ننوعها ونبينها ونضرب فيها الأمثال ونسوقها لقوم يشكرون الله بالاعتراف بنعمه، والإقرار بها، وصرافها في مرضاة الله،

لا تصلح له، أو يتطع في السؤال، أو يبلغ في رفع صوته بالدعاء، فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه.

﴿ولا تفسدوا في الأرض﴾ بعمل المعاصي ﴿بعد إصلاحها﴾ بالطاعات، فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ كما أن الطاعات تصلح بها الأخلاق، والأعمال، والأرزاق، وأحوال الدنيا والآخرة.

﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ أي: خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، طمعاً في قبولها، وخوفاً من ردها، لا دعاء عبد مدل على ربه قد أعجبته نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاه.

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده، لأن ذلك يتضمنه الجفية، وإخفاؤه وإسراؤه، وأن يكون القلب خائفاً طامعاً لا غافلاً، ولا آمناً ولا غير مبال بالإجابة، وهذا من إحسان الدعاء، فإن الإحسان في كل عبادة بذل الجهد فيها، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله، فكلما كان العبد أكثر إحساناً، كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريباً منه برحمته، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى.

﴿٥٧ - ٥٨﴾ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون * والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون * يبين تعالى أثراً من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته فقال: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾

فهم الذين ينتفعون بما فصل الله في كتابه من الأحكام والمطالب الإلهية، لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربه، فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها، فيتدبرونها ويتأملونها، فيبين لهم من معانيها بحسب استعدادهم، وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة، كما أن الغيث مادة الحيا، فإن القلوب الطيبة حين يجيئها الوحي، تقبله وتعلمه وتثبت بحسب طيب أصلها، وحسن عنصرها.

وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها، فإذا جاءها الوحي لم يجد عملاً قابلاً، بل يجدها غافلة معرضة، أو معارضة، فيكون كالمطر الذي يمر على السباخ والرمال والصخور، فلا يؤثر فيها شيئاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾ الآيات.

﴿٥٩ - ٦٤﴾ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴿إلى آخر القصة﴾^(١) لما ذكر تعالى من أدلة توحيد حمله صالحة، أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيدهم مع أهمهم المنكرين لذلك، وكيف أيد الله أهل التوحيد، وأهلك من عاندتهم ولم ينقذ لهم، وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة.

الأليم، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ظاهراً وباطناً، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة، فلم يفد فيهم، ولا نجح فكذبوه فأنجيناهم والذين معه في الضلوك أي: السفينة التي أمر الله نوحاً عليه الصلاة والسلام بصنعها، وأوحى إليه أن يعمل من كل صنف من الحيوانات، زوجين اثنين وأهله ومن آمن معه، فحملهم فيها ونجاهم الله بها.

﴿وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين﴾ عن الهدى، أصرروا الحق، وأراهم الله - على يد نوح - من الآيات البيّنات، ما بهم يؤمن أولوا الألباب، فسخروا منه، واستهزؤوا به وكفروا.

﴿٦٥ - ٧٢﴾ ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ إلى آخر القصة^(١). أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى عاد﴾ الأولى، الذين كانوا في أرض اليمن ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿هوداً﴾ عليه السلام، يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك والظناني في الأرض.

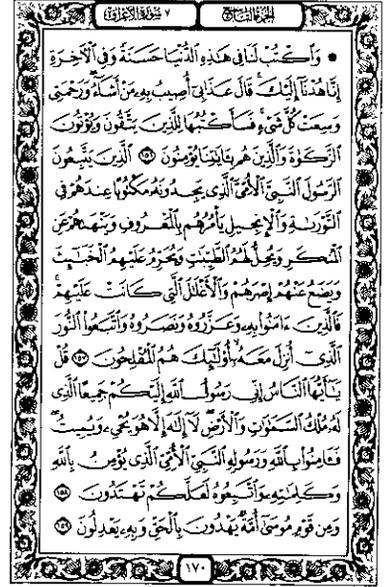
ذ ﴿قال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ سخطه وعذابه، إن أقمت على ما أنتم عليه، فلم يستجيبوا ولا اتقادوا.

ذ ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ رادين لدعوته، فادحين في رأيه: ﴿إننا لنراك في سفاهة وإننا لنظنك من الكاذبين﴾ أي: ما نراك إلا سفيهاً غير رشيد، ويغلب على ظننا أنك من جملة الكاذبين، وقد انقلبت عليهم الحقيقة، واستحكمت عمالهم حيث رموا نبيهم عليه السلام بما هم متصفون به، وهو أبعد الناس عنه، فإنهم السفهاء حقاً الكاذبون.

وأي سفة أعظم ممن قابل أحق الحق بالرد والإنكار، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، وانقاد قلبه وقاله لكل شيطان مريد، ووضع العبادة في غير موضعها، فعبد من

لا تروج على أضعف الناس عقلاً، وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جازوا إلى أصنام قد صوروها ونحتوها بأيديهم، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم شيئاً، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربيات، فلولا أن لهم أذهاناً تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأعقل، فرد نوح عليهم رداً لطيفاً، وترقق لهم لعلهم ينقادون له فقال: ﴿يا قوم ليس بي ضلالة﴾ أي: لست ضالاً في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايا وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربي جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلاً تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة وتنهاهم عن أضدادها، ولهذا قال: ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم﴾ أي: وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيدته وأوامره ونواهيه، على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمرى إن كنتم تعلمون، ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أنه جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله!!

فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه الذي يتلقى بالقبول والشكر، وقوله: ﴿لينذركم ولتتقوا، ولعلكم ترحمون﴾ أي: لينذركم العذاب



ومعتقد واحد، فقال عن نوح - أول المرسلين - ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، حين كانوا يعبدون الأوثان ﴿فقال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: وحده ﴿مالكم من إله غيره﴾ لأنه الخالق الرازق المدير لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدير، ليس له من الأمر شيء، ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله، فقال: ﴿إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشقاء سرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم، فلما قال لهم هذه المقالة، ردوا عليه أقبح رد.

﴿٦٠﴾ ﴿قال الملأ من قومه﴾ أي: الرؤساء الأغنياء المتبعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق، وعدم انقيادهم للرسول، ﴿إننا لنراك في ضلال مبين﴾ فلم يكفهم - قبحهم الله - أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالاً مبنياً، واضحاً لكل أحد. وهذا من أعظم أنواع المكابرة، التي

(١) في ب: كتب الآيات كاملة.

لا يغني عنه شيئاً من الأشجار والأحجار!!؟

وأني كذب أبلغ من كذب من نسب هذه الأمور إلى الله تعالى!!؟

﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة﴾ بوجه من الوجوه، بل هو الرسول المرشد الرشيد، ﴿ولكنني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ .

فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والانقياد وطاعة رب العباد.

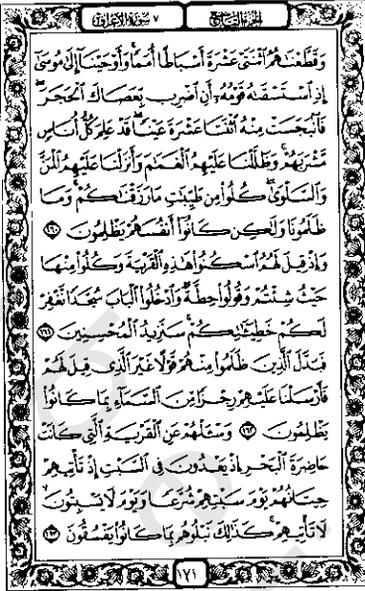
﴿وأوعجبتهم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ أي: كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه، وهو أن الله أرسل إليكم رجلاً منكم تعرفون أمره، يذكركم بما فيه مصالحكم، ويحثكم على ما فيه النفع لكم، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين.

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أي: واحمدوا ربكم واشكروه، إذ مكن لكم في الأرض، وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة الذين كذبوا الرسل، فأهلكهم الله وأبقاكم، لينظر كيف تعملون، واحذروا أن تقيموا على التكذيب كما أقاموا، فيصيبكم ما أصابهم، ﴿و﴾ اذكروا نعمة الله عليكم التي خصكم بها، وهي أن ﴿زادكم في الخلق بسطة﴾ في القوة وكبر الأجسام، وشدة البطش، ﴿فأذكروا آلاء الله﴾ أي: نعمه الواسعة، وأياديه المتكررة ﴿لعلكم﴾ إذا ذكروها بشكرها وأداء حقها ﴿تفلقون﴾ أي: تفوزون بالملبوس، وتنجون من المهوب، فوعظهم وذكرهم، وأمرهم بالتوحيد، وذكر لهم وصف نفسه، وأنه ناصح أمين، وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم، وذكرهم نعم الله عليهم وإدراك الأرزاق إليهم، فلم ينقادوا ولا استجابوا.

﴿وقالوا﴾ متعجبين من دعوته، ومخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه:

﴿أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا﴾ قبحهم الله، جعلوا الأمر الذي هو واجب الواجبات وأكمل الأمور، من الأمور التي لا يُعَارَضُون بها ما وجدوا عليه آباءهم، فقدموا ما عليه الآباء الضالون من الشرك وعبادة الأصنام، على ما دعت إليه الرسل من توحيد الله وحده لا شريك له، وكذبوا نبيهم، وقالوا: ﴿فأجئنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ وهذا استفحاح منهم على أنفسهم.

فقال لهم هود عليه السلام: ﴿قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ أي: لا بد من وقوعه، فإنه قد انعقدت أسبابه، وحان وقت الهلاك ﴿أعجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم﴾ أي: كيف تعجادلون على أمور لا حقائق لها، وعلى أصنام سميتوها آلهة، وهي لا شيء من الآلهة فيها، ولا مثقال ذرة و ﴿ما نزل الله بها من سلطان﴾ فإنها لو كانت صحيحة لأنزل الله بها سلطاناً، فعدم إنزاله له دليل على بطلانها، فإنه ما من مطلوب ومقصود - وخصوصاً الأمور الكبار - إلا وقد بين الله فيها من الحجج ما يدل عليها، ومن السلطان ما لا تخفى معه ﴿فانتظروا﴾ ما يقع بكم من العقاب، الذي وعدتكم به ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ وفرق بين الانتظرين، انتظار من يخشى وقوع العقاب، ومن يرجو من الله النصر والشواب، ولهذا فتح الله بين الفريقين فقال: ﴿فأنجيناه﴾ أي: هوداً ﴿والذين﴾ آمنوا ﴿معه برحمة منا﴾ فإنه الذي هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سبباً ينالون به رحمة فأنجاهم برحمته، ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي: استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يبق منهم أحداً، وسلط الله عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم، فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الذين أقيمت



عليهم الحجج، فلم ينقادوا لها، وأمروا بالإيمان فلم يؤمنوا فكان عاقبتهم الهلاك، والحزني والفضيحة. ﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة، ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بغداً لعاد قوم هود﴾ .

وقال هنا: ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ بوجه من الوجوه، بل وصفهم التكذيب والعناد، ونعتهم الكبر والفساد.

﴿٧٣ - ٧٩﴾ ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ إلى آخر قصتهم^(١). أي: ﴿و﴾ أرسلنا إلى ثمود القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله من أرض الحجاز وجزيرة العرب، أرسل الله إليهم ﴿أخاهم صالحاً﴾ نبياً يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد، ف ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرة﴾ دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين، الأمر بعبادة الله، وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله، ﴿قد جاءكم بيته من ربكم﴾ أي: خارق من خوارق العادات، التي لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها، ثم فسرها بقوله: ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها

(١) في ب: كتب الآيات كاملة.

وحرصت على هدايتكم، واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم والدين القيم. ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾ بل رددتم قول النصحاء، وأطعتم كل شيطان رجيم.

واعلم أن كثيراً من المفسرين يذكرون في هذه القصة أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على صالح، وأنها تمخضت تمخض الحامل، فخرجت الناقة وهم ينظرون، وأن لها فصيلاً حين عقروها، رعى ثلاث رغبات، وانفلق له الجبل ودخل فيه، وأن صالحاً عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم، أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة وجوهكم مصفرة، واليوم الثاني: محمرة، والثالث: مسودة، فكان كما قال.

وكل هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه، بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى، لأن فيها من العجائب والعبير والآيات ما لا يمله تعالى ويدع ذكره، حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله، بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات، فإن صالحاً قال لهم: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ أي: تمتعوا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جداً، فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سوى هذا، وأي: لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب، وذكر لهم وقوع مقدماته، فوقعت يوماً فيوماً على وجه يعمهم ويشملهم [أحمرار وجوههم، واصفرارهم واسودادها من العذاب]^(١).

هل هذا إلا مناقض للقرآن، ومضاد له؟! قال: فالقرآن فيه الكفاية والهداية عن ما سواه.

نعم لو صح شيء عن رسول الله ﷺ مما لا يناقض كتاب الله، فعل الرأس والعين، وهو مما أمر القرآن باتباعه ﴿وما آتاكم

أي: نعمه، وما خولكم من الفضل والرزق والقوة، ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ أي: لا تحربوا الأرض بالفساد والمعاصي، فإن المعاصي تدع الديار العامرة بلاع، وقد أدخلت ديارهم منهم، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ أي: الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق، ﴿للذين استضعفوا﴾ ولما كان المستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين، قالوا ﴿لمن آمن منهم اتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾ أي: أهو صادق أم كاذب؟

فقال المستضعفون: ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ من توحيد الله والخبر عنه وأمره ونهيه.

﴿قال الذين استكبروا: إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾ حملهم الكبير أن لا يتقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء.

﴿فعمقروا الناقة﴾ التي توعدهم إن مسوها بسوء أن يصيبهم عذاب أليم، ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾ أي: قسوا عنه، واستكبروا عن أمره الذي من عتاه عنه أذاقه العذاب الشديد. لا جرم أحل الله بهم من النكال ما لم يحل بغيرهم ﴿وقالوا﴾ مع هذه الأفعال متجرتين على الله، مُعْجِزِينَ لَهُ، غير مباينين بما فعلوا، بل مفتخرين بها: ﴿يا صالح ائتنا بما تعدنا﴾ إن كنت من الصادقين من العذاب، فقال: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾.

﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ على ركبهم، قد أبادهم الله، وقطع دابرهم، ﴿فتولى عنهم﴾ صالح عليه السلام حين أحل الله بهم العذاب، ﴿وقال﴾ مخاطباً لهم توبيخاً وعتاباً، بعدما أهلكهم الله: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم﴾ أي: جميع ما أرسلني الله به إليكم، قد أبلغتكم به



إلى الله تعالى إضافة تشریف، لكم فيها آية عظيمة. وقد ذكر وجه الآية في قوله: ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾. وكان عندهم بشر كبيرة، وهي المعروفة ببئر الناقة، يتناوبونها هم والناقة، للناقة يوم تشربها ويشربون اللبن من ضرعها، ولهم يوم يردونها، وتصدر الناقة عنهم.

وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام: ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ فلا عليكم من مؤنتها شيء، ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ أي: بعقر أو غيره، ﴿فياخذكم عذاب أليم﴾.

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء في الأرض تمتعون بها وتدركون مطالبكم من بعد عاد﴾ الذين أهلكهم الله، وجعلكم خلفاء من بعدهم، ﴿وبواكم في الأرض﴾ أي: مكن لكم فيها، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون ﴿تتخذون من سهولها قصوراً﴾ أي: الأراضي السهلة التي ليست بجبال، تتخذون فيها القصور العالية والأبنية الحصينة، ﴿وتنحتون الجبال بيوتاً﴾ كما هو مشاهد إلى الآن من أعمالهم التي في الجبال، من المساكن والحجر ونحوها، وهي باقية ما بقيت الجبال، ﴿فأذكروا آلاء الله﴾

سلط عليكم عدواً يحتاجكم ولا فرقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم، وإدراك الأرزاق وكثرة النسل.

﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشتات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والانبثات ولم يورثوا ذكراً حسناً، بل أتبعوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة أشد خزيًا وفضيحة.

﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا﴾ وهم الجمهور منهم. ﴿فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ فينصر المحق، ويوقع العقوبة على المبطل.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ وهم الأشراف والكبراء منهم الذين اتبعوا أهواءهم ولهووا بلذاتهم، فلما أتاهم الحق ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة، ردوه واستكبروا عنه، فقالوا لنبيهم شعيب ومن معه من المؤمنين المستضعفين: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ استعملوا قوتهم السبعية، في مقابلة الحق، ولم يراعوا ديناً ولا ذمة ولا حقاً، وإنما راعوا واتبعوا أهواءهم وعقولهم السفهة التي دلتهم على هذا القول الفاسد، فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنك من قريتنا.

ف «شعيب» عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعاً في إيمانهم، والآن لم يسلم من شرهم، حتى توعده إن لم يتابعهم - بالجللاء عن وطنه، الذي هو ومن معه أحق به منهم.

ف «قال» لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجباً من قولهم: ﴿أولو كنا كارهين﴾ أي: أتابعكم على دينكم وملكتم البطالة، ولو كنا كارهين لها لعلمنا ببطلانها، فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالنهي عنها، والتشنيع على من اتبعها فكيف

﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي: حجارة حارة شديدة، من سجيل، وجعل الله عليها سافلها، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ الهلاك والخزي الدائم.

﴿٨٥ - ٩٣﴾ ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾... إلى آخر القصة^(٢) أي: ﴿و﴾ أرسلنا إلى القبيلة المعروفة بمدين أخاهم في النسب ﴿شعيباً﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان، وأن لا يبغسوا الناس أشياءهم، وأن لا يعثوا في الأرض مفسدين، بالإكثار من عمل المعاصي، ولهذا قال: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴿فإن ترك المعاصي أمثالاً لأمر الله وتقرباً إليه خير، وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار، وعذاب النار.

﴿ولا تقعدوا﴾ للناس ﴿بكل صراط﴾ أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها، تحذرون الناس منها و ﴿توعدون﴾ من سلوكها و ﴿تصدون عن سبيل الله﴾ من أراد الاهتداء به و ﴿تبغونها عوجاً﴾ أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعاً لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لنصرتها والدعوة إليها، والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها، الصادين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله ومحادة الله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها.

﴿واذكروا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ أي: نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل، والصحة، وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم، ولا

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمور التي لا يجزم بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفاقهما.

﴿٨٠ - ٨٤﴾ ﴿ولوطاً﴾ إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إلى آخر القصة^(١). أي: ﴿و﴾ اذكر عبدنا ﴿لوطاً﴾ عليه الصلاة والسلام، إذ أرسلناه إلى قومه يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن الفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فقال: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي: الخصلة التي بلغت - في العظم والشناعة - إلى أن استغرقت أنواع الفحش، ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ فكونها فاحشة من أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها وابتكروها، وسنوها لمن بعدهم، من أشنع ما يكون أيضاً.

ثم بينها بقوله: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ أي: كيف تذرون النساء اللاتي خلقهن الله لكم، وفيهن المستمتع الموافق للشهوة والظفرة، وتقبلون على أدبار الرجال، التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخبث، محل تخرج منه الأنتان والأخبث، التي يستحيى من ذكرها فضلاً عن ملامستها وقربها، ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي: متجاوزون لما حده الله متجرئون على محارمه.

﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا﴾ أخرجوهم من قريتهم إنهم أناس يتطهرون﴾ أي: يتنزهون عن فعل الفاحشة. ﴿وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.

﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي: الباقيين المعذبين، أمره الله أن يسري بأهله ليلاً، فإن العذاب مصبح قومه فسرى بهم، إلا امرأته أصابها ما أصابهم.

(٢) في ب: أورد الآيات كاملة.

(١) في ب: أورد الآيات كاملة.

يدعى إليها!!

﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾ أي: أشهدوا علينا أننا إن عدنا فيها بعدما نجانا الله منها وأنقلنا من شرها، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل الله شريكاً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ ولداً ولا صاحبة، ولا شريكاً في الملك.

﴿وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ أي: يمنع على مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال، فأيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة، من جهة أنهم كارهون لها مبغضون لما هم عليه من الشرك. ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون.

ومنها: اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

ومنها: أن عودهم فيها - بعدما هداهم الله - من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل، وأحل المحال.

وحيث إن الله منّ عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدى والضلال.

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه، التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه، ولهذا استثنى ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا، الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ فيعلم ما يصلح للعباد وما

يدبرهم عليه. ﴿على الله توكلنا﴾ أي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم، فإن من توكل على الله كفاه، ويسر له أمر دينه ودنياه.

﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ أي: انصر المظلوم وصاحب الحق، على الظالم المعاند للحق ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ وفتحته تعالى لعباده نوعان: فتح العلم، بتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ومن هو من المستقيمين على الصراط، ممن هو منحرف عنه.

والنوع الثاني: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصلحين، فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يريهم من آياته وعبره، ما يكون فاصلاً بين الفريقين.

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ محذرين عن اتباع شعيب، ﴿لئن اتبعت شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾ هذا ما سولت لهم أنفسهم أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى، ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة في لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال.

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أي: الزلزلة الشديدة ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أي: صرعى ميتين هامدين، قال تعالى ناعياً حالهم ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، وكانهم ما تمتعوا في عرصاتها، ولا تفتنوا في ظلالها، ولا غنوا في مسارح أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، حين فاجأهم^(١) العذاب، فنقلهم من مورد اللهب واللعب واللذات، إلى مستقر الحزن والشقاء والعقاب والدركات ولهذا قال: ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ أي: الخسار محصور فيهم، لأنهم خسروا دينهم وأنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران

المبين، لا من قالوا لهم: ﴿لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾،

فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿وقال﴾ معاتباً وموبخاً ومخاطباً بعد موتهم: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالاتي ربى﴾ أي: أوصلتها إليكم، وبينتها حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه، وخالطت أئدتكم ﴿ونصحت لكم﴾ فلم تقبلوا نصحي، ولا انقذتم لإرشادي، بل فسقتم وطغتم.

﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾ أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهم الخير فردوه ولم يقبلوه، ولا يليق بهم إلا الشر، فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم، بل يفرح بإهلاكهم وعقوبهم، فعباداً بك اللهم من الخزي والفضيحة، وأي: شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم!!

﴿٩٤ - ٩٥﴾ ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون﴾ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس أباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ يقول تعالى:

﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ يدعوهم إلى عبادة الله، وبنهاهم عن ما هم فيه من الشر، فلم ينقادوا له: إلا ابتلاهم الله ﴿بالبأساء والضراء﴾ أي: بالفقر والمرض وأنواع البلايا. ﴿لعلهم﴾ إذا أصابتهم، أخضعت نفوسهم فتضرعوا إلى الله واستكانوا للحق. ﴿ثم﴾ إذا لم يبدف فيهم، واستمر استكبارهم، وازداد طغيانهم. ﴿بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ فأذّر عليهم الأرزاق، وعافى أبدانهم، ورفع عنهم البلاء ﴿حتى عفوا﴾ أي: كشروا، وكثرت أرزاقهم وانسطوا في نعمة الله وفضله، ونسوا ما مر عليهم من البلاء. ﴿وقالوا قد مس أباءنا الضراء والسراء﴾ أي: هذه عادة جارية لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين، تارة

(١) في ب: فأخذهم العذاب.



عذابنا الشديد ﴿بياتاً وهم نائمون﴾

أي: في غفلتهم، وغرتهم وراحتهم.

﴿أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا

ضحى وهم يلمعون﴾ أي: أي شيء

يؤمنهم من ذلك، وهم قد فعلوا

أسبابه، وارتكبوا من الجرائم العظيمة،

ما يوجب بعضه الهلاك!

﴿فأمنوا مكر الله﴾ حيث

يستدرجهم من حيث لا يعلمون،

ويملئ لهم، إن كيدهم متين، ﴿فلا يأمن

مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ فإن من

أمن من عذاب الله، فهو^(١) لم يصدق

بالجزاء على الأعمال، ولا آمن بالرسول

حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها من

التخويف البالغ، على أن العبد لا ينبغي

له أن يكون آمناً على ما معه من

الإيمان.

بل لا يزال خائفاً وجلالاً أن يبطل

ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن

لا يزال داعياً بقوله: «يا مقلب القلوب

ثبت قلبي على دينك»، وأن يعمل

ويسعى، في كل سبب يخلصه من الشر

عند وقوع الفتن، فإن العبد - ولو

بلغت به الحال ما بلغت - فليس على

يقين من السلامة.

﴿١٠٠ - ١٠٢﴾ ﴿أولم يهد للذين

يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء

أصابتهم بذنوبهم ونطع على قلوبهم

فهم لا يسمعون﴾ تلك القرى نقص

عليك من أنبيائها ولقد جاءتهم رسلهم

بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من

قبل كذلك يطبع الله على قلوب

الكافرين * وما وجدنا لأكثرهم من

عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسين﴾

يقول تعالى منبهاً للأمم الغابرين بعد

هلاك الأمم الغابرين^(٢): ﴿أولم يهد

للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن

لو نشاء أصابتهم بذنوبهم﴾ أي: أو لم

يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا

الأرض، بعد إهلاك من قبلهم

بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك

يكونون في سراء وتارة في ضراء،

وتارة في فرح، ومرة في ترح، على

حسب تقلبات الزمان وتداول الأيام،

وحسوا أنها ليست للموعظة والتذكير،

ولا للاستدراج والتكبير حتى إذا

اغتنطوا، وفرحوا بما أوتوا، وكانت

الدنيا، أسر ما كانت إليهم، أخذناهم

بالعذاب ﴿بغفلة وهم لا يشعرون﴾

أي: لم يخطر لهم الهلاك على بال،

وظنوا أنهم قادرون على ما آتاهم الله،

وأهم غير زائلين ولا منتقلين عنه.

﴿٩٦ - ٩٩﴾ ﴿ولو أن أهل القرى

آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من

السماء والأرض ولكن كذبوا

فأخذناهم بما كانوا يكسبون * أفأمن

أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم

نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم

أسنا ضحى وهم يلمعون * أفأمنوا

مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم

الخاسرون﴾ لما ذكر تعالى أن المكذبين

للرسول يبطلون بالضراء موعظة وإنذاراً،

وبالسراء استدراجاً ومكراً، ذكر أن

أهل القرى، لو آمنوا بقلوبهم إيماناً

صادقاً صدقته الأعمال، واستعملوا

تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً، بترك

جميع ما حرم الله، لفتح عليهم بركات

السماء والأرض، فأرسل السماء

عليهم مدراراً، وأنبت لهم من الأرض

ما به يعيشون وتعيش بهائمهم، في

أخصب عيش وأغزر رزق، من غير

عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب،

ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا ﴿فأخذناهم

بما كانوا يكسبون﴾ بالعقوبات والبلايا

ونزع البركات، وكثرة الآفات، وهي

بعض جزاء أعمالهم، وإلا فلو

واخذهم بجميع ما كسبوا، ما ترك

عليها من دابة. ﴿ظهر الفساد في البر

والبحر بما كسبت أيدي الناس،

ليذيقهم بعض الذي عملوا، لعلهم

يرجعون﴾.

﴿أفأمن أهل القرى﴾ أي: المكذبة،

بقريئة السياق ﴿أن يأتيهم بأسنا﴾ أي:

المهلكين؟

أو لم يبتدوا أن الله لو شاء لأصابهم

بذنوبهم، فإن هذه سنته في الأولين

والآخرين.

وقوله: ﴿ونطع على قلوبهم فهم

لا يسمعون﴾ أي: إذا نهبهم الله فلم

ينتبهوا، وذكرهم فلم يتذكروا،

وهدهم بالآيات والعبر فلم يبتدوا،

فإن الله تعالى يعاقبهم ويطبع على

قلوبهم، فيعلوها الران والدنس، حتى

يختم عليها، فلا يدخلها حق، ولا

يصل إليها خير، ولا يسمعون ما

ينفهم، وإنما يسمعون ما به تقوم

الحجة عليهم.

﴿تلك القرى﴾ الذين تقدم ذكرهم

﴿نقص عليك من أنبيائها﴾ ما يحصل به

عبارة للمعتبرين، وازدجار للظالمين،

وموعظة للمتقين.

﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾

أي: ولقد جاءت هؤلاء المكذبين

رسلهم تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم،

وأيدهم الله بالمعجزات الظاهرة،

والبينات المبينات للحق بياناً كاملاً،

ولكنهم لم يفهموا هذا، ولا أغنى عنهم

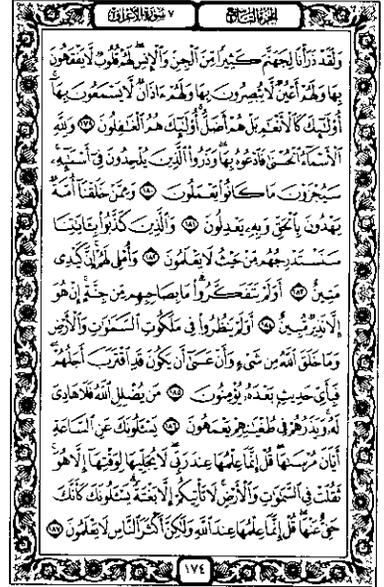
شيئاً، ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من

قبل﴾ أي: بسبب تكذيبهم وردهم

الحق أول مرة، ما كان الله ليهديهم

(١) في ب: فإنه.

(٢) في هامش ب في بيان معنى كلمة الغابرين المتكررة ما يلي: الغابرين: الباقين، الغابرين: الماضين.



﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي: حية ظاهرة تسمى، وهم يشاهدونها.

﴿ونزع يده﴾ من جيبه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ من غير سوء، فهاتان آياتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقته، وأنه رسول رب العالمين، ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، فلماذا ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات، ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ أي: ماهر في سحره، ثم خوفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول، بأنه ﴿يريد﴾ موسى بفعله هذا ﴿أن يخرجكم من أرضكم﴾ أي: يريد أن يجليكم^(١) عن أوطانكم ﴿فماذا تأمرون﴾ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم، فإن ما جاء به إن لم يقابل بما يطله ويدحضه، وإلا دخل في عقول أكثر الناس، فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون: ﴿أرجة وأخاه﴾ أي: احبسهما وأمهلهما، وابعث في المدائن أناساً يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل ساحر عليم، أي: يجيئون بالسحرة المهرة، ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى اجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى.

﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرون الناس ضحى﴾ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴿وقال هنا:﴾ وجاء السحرة فرعون ﴿طالبين منه الجزاء إن غلبوا﴾ فقالوا: ﴿إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾؟ فـ ﴿قال﴾ فرعون: ﴿نعم﴾ لكم أجر ﴿وإنكم لمن المقربين﴾ فوعدهم الأجر والتقريب، وعلو المنزلة عنده، ليجهدوا ويبدلوا وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى، فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم ﴿قالوا﴾ على وجه التأييد وعدم

بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائته ﴿إلى آخر قصته^(٢)﴾. أي: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى الكليم، الإمام العظيم، والرسول الكريم، إلى قوم عتاة جبابرة، وهم فرعون وملئه، من أشرفهم وكبرائهم، فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير ﴿فظلموا بها﴾ بأن لم ينقادوا لحقها الذي من لم ينقد له فهو ظالم، بل استكبروا عنها ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ كيف أهلكهم الله، وأتبعهم الذم واللعة في الدنيا ويوم القيامة، بشس الرد المرفود، وهذا مجمل فصله بقوله: ﴿وقال موسى﴾ حين جاء إلى فرعون يدعو إلى الإيمان ﴿يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾ أي: إني رسول من مرسل عظيم، وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جلتها أنه لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، ويدعي أنه أرسله ولم يرسله.

فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته، فحقيق علي أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحق، فإني لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر. فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه، خصوصاً وقد جاءهم بيينة من الله واضحة على صحة ما جاء به من الحق، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به، واتباعهم له، وإرسال بني إسرائيل الشعب الذي فضله الله على العالمين، أولاد الأنبياء، وسلسلة يعقوب عليه السلام، الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم. فقال له فرعون: ﴿إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ * فألقى موسى ﴿عصاه﴾ في الأرض

للإيمان، جزاء لهم على ردهم الحق، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لو يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾. ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ عقوبة منه. وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم.

﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ أي: وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد، أي: من ثبات والتزام لوصية الله التي أوصى بها جميع العالمين، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم على السنة رسله.

﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاستقين﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، فالله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأمرهم باتباع عهده وهداه، فلم يمثل لأمره إلا القليل من الناس، الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة.

وأما أكثر الخلق فأعرضوا عن الهدى، واستكبروا عما جاءت به الرسل، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل.

﴿١٠٣ - ١٧١﴾ * ﴿ثم بعثنا من

(١) في ب: أورد الآيات كاملة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يريد ليجليكم من.

ويزول عنه الانزعاج الكثير.

﴿وتوفنا مسلمين﴾ أي: منقادين لأمرك، متبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان.

هذا وفرعون وملاؤه وعامتهم المتبعون للملأ، قد استكبروا عن آيات الله، وجحدوا بها ظلماً وعلواً، وقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد: ﴿أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض﴾ بالدعوة إلى الله، وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، التي هي الصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد، ولكن الظالمين لا يبالون بما يقولون.

﴿ويذرك وأهلك﴾ أي: يدعك أنت وأهلك، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك.

﴿قال﴾ فرعون مجيباً لهم، بأنه سيدع بني إسرائيل مع موسى بحالة لا ينمون فيها، ويؤمن^(١) فرعون وقومه - بزعمه - من ضررهم: ﴿سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾ أي: نستبقيهن فلا نقلهن، فإذا فعلنا ذلك أمنا من كثرتهم، وكنا مستخدمين لباقيهم، ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال ﴿وإننا فوقهم قاهرون﴾ لا خروج لهم عن حكمنا ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة.

﴿قال موسى لقومه﴾ موصياً لهم في هذه الحالة، - التي لا يقدرון معها على شيء، ولا مقاومة - بالمقاومة الإلهية، والاستعانة الربانية:

﴿استعينوا بالله﴾ أي: اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم، ودفع ما يضركم، وثقوا بالله أنه سيمم أمركم ﴿واصبروا﴾ أي: الزموا الصبر على ما يجعل بكم منتظرين للفرج.

﴿إن الأرض لله﴾ ليست لفرعون ولا لقومه حتى يتحكموا فيها ﴿يورثها

ثم موه على قومه وقال: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تغلبوا له، فيظهر فتتبعوه، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم، فتخرجوا منها أهلها.

وهذا كذب يعلم هو ومن سبر الأحوال، أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا وتبين لهم الحق، فاتبعوه. ثم توعدهم فرعون بقوله:

﴿فسوف تعلمون﴾ ما أحل بكم من العقوبة، ﴿لا تطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ زعم الخبيث أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع المفسدين، من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى. ﴿ثم لأصلبنكم﴾ في جذوع النخل، لتختزوا بزعمه ﴿أجمعين﴾ أي: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كلكم سيذوق هذا العذاب، فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إننا إلى ربنا منقلبون﴾ أي: فلا نبالي بعقوبتك، فالله خير وأبقى، فاقض ما أنت قاض.

﴿وما تنقم منا﴾ أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب ﴿إلا أن أمنا﴾ [آيات] ربنا [لما جاءتنا]^(١) فإن كان هذا ذنباً يعاب عليه، ويستحق صاحبه العقوبة، فهو ذنبنا.

ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا: ﴿ربنا أفرغ﴾ أي: أفض علينا صبراً﴾ أي: عظيماً، كما يدل عليه التكبير، لأن هذه محنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت الفؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه،

المبالاة بما جاء به موسى: ﴿يا موسى إما أن تلقي﴾ ما معك ﴿وإما أن تكون نحن الملقين﴾ ذ ﴿قال﴾ موسى: ﴿ألقوا﴾ لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى.

﴿فلما ألقوا﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعى، ذ ﴿سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم﴾ لم يوجد له نظير من السحر.

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك﴾ فألقها ﴿فإذا هي﴾ حية تسعى، ذ ﴿تلقف﴾ جميع ﴿ما يافكون﴾ أي: يكذبون به ويموهون.

﴿فوقع الحق﴾ أي: تبين وظهر، واستعلن في ذلك المجمع، ﴿وبطل ما كانوا يعملون﴾ فغلبوا هنالك ﴿أي: في ذلك المقام﴾ وانقلبوا صاغرين ﴿أي: حقيرين قد اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها.

﴿وألقى السحرة ساجدين﴾ قالوا آمنا برب العالمين ﴿رب موسى وهارون﴾ أي: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.

ذ ﴿قال﴾ لهم ﴿فرعون﴾ متهدداً على الإيمان: ﴿أمنتكم به قبل أن أذن لكم﴾ كان الخبيث حاكماً مستبداً على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم، وتضعف عقولها وتفوذها، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ وقال هنا: ﴿أمنتكم به قبل أن أذن لكم﴾ أي: فهذا سوء أدب منكم وتجروء علي.

(١) زيادة من هامش ب، وهي في أ: أمنا ربنا.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ويؤمن.

عهد عندك ﴿١﴾ أي: تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحي والشرع، ﴿لئن كشفت عنا الرجز، لنؤمنن لك ولترسلن معك بني إسرائيل﴾ وهم في ذلك كذبة، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب، وظنوا إذا رفع لا يصيبهم غيره.

﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه﴾ أي: إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها، وليس كشفاً مؤبداً، وإنما هو مؤقت، ﴿إذا هم ينكثون﴾ العهد الذي عاهدوا عليه موسى، ووعده بالآيمان به، وإرسال بني إسرائيل، فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمروا على كفرهم يعمهون، وعلى تعذيب بني إسرائيل دائنين.

﴿فانتقمنا منهم﴾ أي: حين جاء الوقت الموقت لهلاكهم، أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده ﴿فأرسل فرعون في المادائن حاشرين﴾ يجمعون الناس ليتبعوا بني إسرائيل، وقالوا لهم: ﴿إن هؤلاء لشردمة قليلون﴾ وإني لآغاظون * وإنا لجميع حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين *.

وقال هنا: ﴿فأغرقناهم في اليم﴾ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴿أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق.

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ في الأرض، أي: بني إسرائيل الذين كانوا خدمة لآل

قال الله تعالى: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ أي: بقضائه وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك، بل ﴿أكثرهم لا يعلمون﴾ أي: فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿وقالوا﴾ مبينين لموسى أنهم لا يزالون، ولا يزالون عن باطلهم: ﴿مهما تأتانا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ أي: قد تقرر عندنا أنك ساحر، فمهما جئت بآية جزمنا أنها سحر، فلا نؤمن لك ولا نصدق، وهذا غاية ما يكون من العناد، أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات، سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل.

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ أي: الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم، وأضر بهم ضرراً كثيراً ﴿والجراد﴾ فأكل ثمارهم، وزروعهم، ونباتهم ﴿والقمل﴾ قيل: إنه الدبابة، أي: صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف ﴿والضفادع﴾ فملأت أوعيتهم، وأقلقتهم، وأذت أذية شديدة ﴿والدم﴾ إما أن يكون الرعاف، أو كما قال كثير من المفسرين، أن ماءهم الذي يشربون انقلب دماً، فكانوا لا يشربون إلا دماً، ولا يطبخون إلا بدم.

﴿آيات مفصلات﴾ أي: أدلة وبيانات على أنهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق ﴿فاستكبروا﴾ لما رأوا الآيات ﴿وكانوا﴾ في سابق أمرهم ﴿قوماً مجرمين﴾ فلذلك عاقبهم الله تعالى، بأن أبقاهم على الغي والضلال.

﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أي: العذاب، يحتمل أن المراد به: الطاعون، كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، فإنها رجز وعذاب، وأنهم كلما أصابهم واحد منها ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما

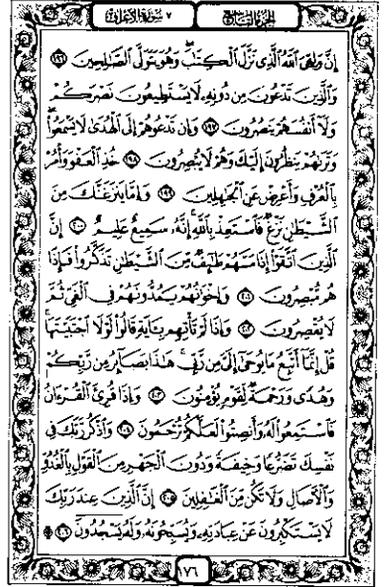
من يشاء من عباده﴾ أي: يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة للمتقين، فإنهم - وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة، فإن النصر لهم، ﴿والعاقبة﴾ الحميدة لهم على قومهم وهذه وظيفة العبد، أنه عند القدرة، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير، ما يقدر عليه، وعند العجز، أن يصبر ويستعين بالله، ويتنظر الفرج.

﴿قالوا﴾ لموسى متضجرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون، وأذيته: ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا﴾ فإنهم يسوموننا سوء العذاب، يذبحون أبنائنا ويستحيون نساءنا ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾ كذلك ف ﴿قال﴾ لهم موسى مرجياً ﴿لهم﴾^(١) الفرج والخلاص من شرهم: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض﴾ أي: يمكنكم فيها، ويجعل لكم التدبير فيها ﴿فينظر كيف تعملون﴾ هل تشكرون أم تكفرون؟. وهذا وعد أنجزه الله لما جاء الوقت الذي أراده الله.

﴿١٣٠﴾ قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل فرعون في هذه المدة الأخيرة، أنها على عادته وسنته في الأمم، أن يأخذهم بالأساء والضراء، لعلهم يضرعون. الآيات:

﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ أي: بالدهور والجذب، ﴿ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون﴾ أي: يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم، لعلهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد.

﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ أي: الخصب وإدراك الرزق ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي: نحن مستحقون لها، فلم يشكروا الله عليها ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي: قحط وجذب ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي: يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسى، واتباع بني إسرائيل له.



في الأرض بغير الحق ﴿١﴾ أي: يتكبرون على عباد الله وعلى الحق، وعلى من جاء به، فمن كان بهذه الصفة، حرمة الله خيراً كثيراً وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح.

﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ لإعراضهم واعتراضهم، ومعادتهم لله ورسوله، ﴿وإن يروا سبيل الرشاد﴾ أي: الهدى والاستقامة، وهو الصراط الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته. ﴿لا يتخذوه﴾ أي: لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه ﴿وإن يروا سبيل الغي﴾ أي: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء ﴿يتخذوه سبيلاً﴾ والسبب في انحرافهم هذا الانحراف ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ فردهم لآيات الله، وغفلتهم عما يراد لهم من سلوك طريق الغي، وترك طريق الرشاد ما أوجب.

﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا. ﴿ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾ لأنها على غير أساس، وقد فقد شرطها وهو الإيمان بآيات الله، والتصديق بجزائه ﴿هل يميزون﴾ في بطلان أعمالهم وحصوا. ضد مقصودهم ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ فإن أعمالهم من لا يؤمن باليوم الآخر، لا يرجو فيها ثواباً، وليس لها غاية تنتهي إليه، فلذلك اضمحلَّت وبطلت ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً﴾ صاغه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار ﴿له خوار﴾ وصوت، فعبدهه واتخذوه إلهاً.

وقال ﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾ موسى، وذهب يطلبه، وهذا من سفههم، وقلة بصيرتهم، كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسموات، بعجل من أنقص المخلوقات؟! ولهذا قال مبيئاً أنه ليس فيه من الصفات الذاتية ولا الفعلية، ما يوجب أن يكون إلهاً، ألم يروا أنه

لا يكلمهم ﴿أي: وعدم الكلام نقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد، الذي لا يتكلم﴾ ولا يهديهم سبيلاً ﴿أي: لا يدلهم طريقاً دينياً، ولا يحصل لهم مصلحة دينية، لأن من المتقرر في العقول والفطر، أن اتخاذ إله لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل، وأسمح السفه، ولهذا قال: ﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ حيث وضعوا العبادة في غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وفيها دليل على أن من أنكر كلام الله، فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى، لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم للإلهية.

﴿ولما﴾ رجع موسى إلى قومه، فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم بضلالهم ندموا و ﴿سقط في أيديهم﴾ أي: من الهم والندم على فعلهم، ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ فتنصلوا، إلى الله وتضرعوا و ﴿قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا﴾ فبدلنا عليه، وبرزقنا عبادته، ويوفقنا لصالح الأعمال، ويغفر لنا﴾ ما صدر منا من عبادة العجل ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة.

وخصصتك بفصائل عظيمة، ومناقب جليلة، ﴿برسالاتي﴾ التي لا أجعلها، ولا أخص بها إلا أفضل الخلق.

﴿وبكلامي﴾ إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة اختص بها موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين، ﴿فخذ ما أتيتك﴾ من النعم، وخذ ما أتيتك من الأمر والنهي بانسراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد، ﴿وكن من الشاكرين﴾ لله على ما خصك وفضلك.

﴿وكتبتنا له في الألواح من كل شيء﴾ يحتاج إليه العباد ﴿موعظة﴾ ترغب النفوس في أفعال الخير، وترهبهم من أفعال الشر، ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ من الأحكام الشرعية، والعقائد والأخلاق والآداب ﴿فخذها بقوة﴾ أي: بجهد واجتهاد على إقامتها، ﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ وهي الأوامر الواجبة والمستحبة، فإنها أحسنها، وفي هذا دليل على أن أوامر الله - في كل شريعة كاملة - عادلة حسنة.

﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ بعدما أهلكتهم الله، وأبقى ديارهم عبرة بعدهم، يعتبر بها المؤمنون الموقفون المتواضعون، وأما غيرهم، فقال عنهم: ﴿سأصرف عن آياتي﴾ أي: عن الاعتبار في الآيات الأفقية والبنفسية، والفهم لآيات الكتاب ﴿الذين يتكبرون